خاتمة

إن ما أرى اتخاذه من التدابير للنجاة من التفرقة أم المصائب كلها، أن يعقد مؤتمر إسلامي من أكابر علماء النحل المختلفة، لدرس المسائل المختلف فيها في هذا المؤتمر، وحلها، وإرجاع عقائدنا إلى صفائها الأول، دون تضييع وقت، ثم القضاء على هذا الخصام والنفاق برضا الطرفين ولو عن إبقاء بعض ما يمكن إبقاؤه من الاختلافات في المسائل الجزئية والفرعية.

لقد أخبر الشارع بظهور مرشد مجدد لهذا الدين في كل قرن، وبوجود مسوغ للتعديل في الأحكام والأعمال بحسب ضرورات الزمان؛ فيجب أن تكون لهذا العصر كذلك هيئة إرشادية. كان لتاريخ الإسلام عهد المجتهدين. وفي نفس ذلك العهد افترق كثير من الفرق عن أهل السنة والجماعة. واعترف الخلفاء والسلاطين بأربعة من المذاهب والاجتهادات، بقصد الوقوف أمام تيار هذه التفرقة- على ما أظن- ثم أقفلوا باب الاجتهاد إدارياً- إن جاز هذا التعبير- بيد أن مثل هذا التدبير والتحديد مناف لنفس الأمر، ولما في روح الإسلام من حرية (٩٧). ومن جهة أخرى، إن السماح لكل عالم بالاجتهاد- ولاسيما في العقائد- يستلزم تعدد الاختلاف والتفرقة واشتدادهما. فلو انعقد المؤتمر الإسلامي المذكور آنفاً، واتخذ قراراته العامة، فلا يخلو من فائدة وجود مجلس دائمي، مؤلف من أكابر علماء المسلمين، على أن يجتمع بضعة أشهر في كل عام، في مكان يختار له في دار الخلافة، أو في بلد معتدل الجو

بالحجاز، كالطائف مثلاً، ويكون من واجبات هذا المجلس الأساسية الرد على الأسئلة والاستيضاحات الواردة من أنحاء مختلفة، وإصدار فتاوى، ووقاية الأمور الاعتقادية مما حل بها من الأباطيل، واتخاذ ما يقتضي انتشار الإسلام من التدابير الدينية والمعنوية، وغيرها من الأمور الهامة العامة، دون أية علاقة بالأمور السياسية العالمية.

***

قرأ بعض الأفاضل الأجلاء مسودة كتابي هذا منذ عهد بعيد فأبدوا تخوفهم من أن المناقشات التي ستدور في المؤتمر الإسلامي العام، أو في المجلس الدائمي، سوف تسبب اشتداد النفاق. ولكن إذا ظل سالكو المذاهب المختلفة في حنق مستمر- ولو مع السكون- فإن خصومنا سوف ينهضون للاستفادة من هذه الحالة، وستلهب جمرة الفساد المدفونة في الرماد نار القتال بريح محرضة تهب من جهة ما، فتهد مبنى الإسلام، وتذهب به. والتاريخ بل الواقع أيضاً يدلان على ذلك. فالصدمات الماضية التي أصابتنا من جراء ذلك، قد أوقعت بجامعتنا ضعفاً وخراباً إلى حد لم يبق في بنيتنا من القدرة والصلابة ما يكفي لمقاومة تكررها. فلذا يجب البحث عن وسائل الصلح والسلم على أي حال. وهذا يقتضي الاجتماع والتشاور والمذاكرة.

يفكر أولئك الأفاضل الكرام- الذين سردت احترازهم آنفاً- بأن تعصب علمائنا المعروفين بأنهم عالميون إلى حد ما ومكابراتهم قد بلغا درجة تورث اليأس والقنوط؛ فيقتضي أن يكون آراء علماء الدين الناشئين

في بيئات أضيق في صحارى آسيا وإفريقية وجبالهما أضيق من هذا فلن يمكن المباحثات العلمية والفنية مع هذا الضيق الفكري. وكل مناقشة أو مناظرة تكون سبباً للتباغض وإيقاظ المعارضة، وخاصة إذا اختلط بهذه الهيئات أعضاء ممن اجتذبهم الخارج، فإن المصائب تتضاعف.

ولكن حكماً صادراً هنا (يعني إستانبول) قياساً على علماء البيئة القريبة، لا يصدُق في اجتهادي على العالم الإسلامي جميعه. وإذا أنعمنا النظر في الماضي وفي الحاضر ثبتت صحة قولي. فمثلا كان نادر شاه قد شرع في رفع الخلاف الذي بين السنيين وبين الشيعة، وإزالته بإخلاص تام. وقد رُوي تواتراً أن مسئولية علمائنا ورجالنا السياسيين أكثر من مسئولية مجتهدي الشيعة، في إخفاق مسعاه في هذا الباب.

أما اتفاقية اليمن التي انتهت إلى التوفيق في الزمن الأخير، فكان موقف علماء الزيدية فيها أكثر تسامحاً وملاءمة من موقف العلماء السنيين. لقد أعلن سمو الإمام يحيى حميد الدين من تلقاء نفسه وجوب قتل من يسب الشيخين عقب الاتفاق السياسي، فرفع بهذه الصورة الخلاف الأساسي المذهبي بين أهل السنة وبين غُلاة الزيدية. فهذا المثال وأمثاله تدل على أن عدم الثقة بعلماء سائر البلاد والأمم الإسلامية ليس في موضعه. بيد أنه يشترط الإحسان في اختيار العلماء الممثلين للأمم والنحل المختلفة في ذلك المجلس. وفي رأيي أنه يجب أن يكون الاتجاه لاختيار المندوبين المخلصين الأنقياء أكثر من أن يكونوا من العلماء العظام.

حضر إلى صنعاء في أثناء إبرام اتفاقية اليمن سيدان من المتعلمين في مصر، أحدهما من صعدة والآخر من تهامة. فسواء سلوكهما وسلوك غيرهما من العلماء الذين كانوا في صور مختلفة في إستانبول أو في جهات أخرى من المماليك العثمانية، والبلاد الأجنبية- كان مشكوكاً في إخلاصه، على حين لم يكن السيد قاسم العزي والقاضي حسين العمري؛ اللذان عملا على الائتلاف قلباً وقالباً لوجه الله، ما كانا قد تعمقا في علم غير الفقه وبعض العلوم الدينية، ولم يفارقا الجبال اليمانية- فيما عدا سفرهما إلى الحج- وكانا من أرباب الزهد والتقوى، بل من أرباب التعصب والمتانة، إلى حد تجنب الاحتكاك برجال الحكومة العثمانية قبل ذلك التاريخ. فهما قد عملا بكمال الإخلاص والاستقامة على إبرام الاتفاقية التي رأياها مفيدة للجامعة الإسلامية.

وأقص حادثاً آخر مؤلماً ومؤيداً لهذا الرأي. وذلك أنه كان القاضي جغمان مفتي صنعاء من أفاضل علماء الزيدية- فريداً في الفقه والكلام والأدب العربي. وقد صادق الدولة العثمانية، وقام بمواعظ ونشرات شديدة ضد الأئمة المناوئين للدولة العثمانية، لاعتقاده أنها هي الدولة الإسلامية العظمى في ذلك العهد. وكان كل ذلك بلا عوض مادي. حتى إذا سقطت صنعاء في يد الإمام يحيى سنة ١٣٢٣ أعدم (غفر الله لهما [٩٨])؛ فكيفية استشهاده شاهد ودليل مخلد على قوة ارتباطه بالوحدة الإسلامية، وبراءته من التعصب المذهبي، وقد نشأ على مذهب الزيدية ومبادئها، ولم يخرج من اليمن قط.

وأضيف هنا استطراداً أني سمعت كثيرين ممن يوثق بكلامهم يقولون إنه كان يوصى طلبته دائماً بأن يصرحوا بشبهاتهم، ويستكنهوها، ويرد على أسئلتهم بأجوبة في حدود النقل والعقل والمنطق، رحمه الله رحمة واسعة.

مثال آخر: سيد في الخامسة والعشرين إلى ثلاثين من عمره، خرج لأول مرة من مسقط رأسه «حاشد»، وقدم إلى صنعاء بقصد المعالجة، وكان ذلك بعد إبرام المعاهدة، واجتذب القلوب بعلمه وذكائه، وبصفاء طويته، وخلوص نيته، مما تجلى في معاملاته ومحادثاته البريئة من قيود المدنية المرائية، وحدثت بيني وبينه صلة صداقة خالصة. وقد سمعت أنه معتاد التردد على المعسكر في أوقات المناوبة، لسماع الموسيقى، فدعوته يوماً، وأدرت الحاكي (الفونوجراف) الذي أعجب به كثيراً، وطلب إلي تكراره مرات. ومن الغريب أنه كان يؤثر أصوات موسيقى ڤاجنر، التي قل أن يُتنبه لها في إستانبول. فقلت له يوماً ممازحاً: «أليست الموسيقى حراماً؟ إني أراك مولعاً بها!». فقال «بلى، يجوز أن تكون الموسيقى حراماً لمن يتوسل بها من الجهال إلى سائر المحرمات؛ أما من يسمع مثل هذه النغمات والأصوات المؤثرة، ويتأثر بها، فلا يكون آثماً بل يكون مأجورا». فلنقارن الآن بين شاب عالم عربي من «حاشد»، الذي نعده بلداً قاصياً في صحراء بلاد العرب، وبين واعظنا الشهير المرحوم الشيخ لاز الخبير بالدنيا!

وإني أحكم بدلالة مثل هذه المشاهدات بأنه لا يحدث كثيراً ما يُتوهم في علماء سائر الشعوب من التهرب من الاتفاق في الاجتماع الذي أراه ضرورياً.

ومع ذلك، ليس من الضروري أن يفهم من كلامي هذا أني أرى دعوة بعض الشعوب الصغيرة الزائفة الجاهلة، كاليزيدية والنصيرية، للاشتراك في المؤتمر الإسلامي؛ فإن أمثال تلك الفرق تُدفع إلى الهداية تدريجياً، بتدابير الحكومات الإسلامية المحيطة بها وهممها. ومن البديهي أن يكون هذا المؤتمر ومجلسه مؤلفين من العلماء المختارين من الملل والنحل الكبيرة، كالزيدية والإمامية (الاثنا عشرية) والإسماعيلية.

كان ينبغي لي أن أتجنب الحديث عن التفصيلات المتعلقة بالإجراء والتنفيذ، وأنا أقترح القيام بعمل عام كهذا، بيد أني رأيت ضرورة لكتابة بعض أسطر لتوضيح المرام.

ومن رأيي أن يكون انعقاد هذا المؤتمر على مرتين، وفي شكلين. فأما للمرة الأولى فيجتمع علماء المذاهبِ الأربعة السنية، ومعهم الوهابيون التابعون للمذهب الحنبلي، ويبحثون أولاً في الزوائد والأباطيل التي صارت في حكم المعتقدات، في جهات مختلفة من العالم الإسلامي، ويرجعون بالعقائد إلى بساطتها الأولى، وسلامتها الأصلية، بطي الأباطيل وحذفها؛ ثم يبحثون في المسائل المختلف فيها، والمعترض عليها من الأحكام، فيحلونها توفيقاً لأقوال السلف السابقين، واجتهاداتهم، وضرورات العصر الحالي وترقياته.

وثانياً يُبحث في العقائد المردودة للنحل التي تعد من الفرق الضالة، فيثبت مالا يمكن الإقرار به، وما يمكن الإقرار ببعضه عيناً، وبعضه معدلاً مع بعض التساهل، وفي درجة التعديلات لعقائد تلك الفرق، حتى تكون صالحة لقبولها ضمن الجامعة الإسلامية.

وأحس بحاجة إلى إيراد مثال آخر لإيضاح رأيي، وإزالة ما يلاحظ من الإيهام في الفقرة الأخيرة: فأكبر ما بيننا وبين الشيعة من الخلاف هو سبهم بعض أصحاب الرسول، وبغضهم أياهم. وإذا حُلت هذه المسألة، فالمسائل المختلف فيها تنزل إلى منزلة المناقشات التاريخية العادية. وإذا دامت إطالة اللسان بحال من الأحوال في حق الأصحاب الأربعة المختارين، والعشرة المبَشَّرة ومقربي الرسول ومقرباته، الذين ثبتت فضائلهم، وعلو مراتبهم بكثير من الروايات الصحيحة، والوقائع المهمة، فلن يمكن الوصول إلى اتفاق بالطبع. ولكن إذا كان بعض علمائنا يجعلون لفظ «أصحاب» الوارد في «من أبغض أصحابي أبغضني» شاملاً لكل من رأى النبي وصاحبه، في حين يأخذه علماء الشيعة بمعنى الصديق المستعمل اليوم أيضاً عند العرب، ويعدون من قام منهم بما يخالف شيمة الصداقة أنهم ليسوا بأصحاب، ويبغضونهم، فلا بأس بأن يقال لهم «إما لا نشارككم في رأيكم هذا، غير أنا لا تتدخل في شئونكم أيضا». إن عقلي ليعجز عن إدراك العناد في إدامة النفاق بين المسلمين، حرصاً على الدفاع عن بعض ذوي شخصيات سياسية تاريخية خلوا منذ ثلاثة عشر قرناً، أو لإضافة بعض ألقاب التعظيم إلى أسمائهم.

إذا تم بحث أمثال هذه المسائل والمسامحات، ونوقشت في الاجتماع الأول، واتخذت القرارات، فيجب دعوة علماء الفرق المختلفة لعقد مؤتمر آخر، والقيام مجتمعين بمباحثات ومذاكرات باعتدال تام، في البحث عن وسائل حل الاختلافات وتسويتها، ورفع الخصومات وإزالتها. فللمذاهب والنحل الداخلة في دائرة الصلاح والاتفاق بهذه الصورة- تعين الأعضاء للمجلس الدائمي.

كنت سودت هذه الأسطر منذ خمسة أعوام أو ستة. حتى إذا مضت مدة قليلة، اجتمع بالحجاز مندوبون من الأقطار الإسلامية المختلفة. ولكن لم تترشح في جهاتنا روايات صريحة واضحة لا عن مقاصد هذا الاجتماع، ولا عن نتائج مباحثاته؛ وكان موضوع مذاكراته محدوداً على كل حال، ولم يكن له نفع كبير. ومع ذلك لم يقع ولله الحمد ما سرى في الأوهام من المخاوف.

ويجب السعي كذلك لعقد مؤتمرات كالذي ذكرته، قادرة على إجراء مباحثات ومناقشات حول ما ذكرت من المواضيع. وقد أظهر الجامع الأزهر مرات عديدة همة وجلداً في سبيل المحافظة على الأحكام الدينية في الزمن الأخير. وقامت الجمعية الإسلامية الهندية بما هو خليق بالشكر والثناء. فعلى عاتق هذين المؤسسين العاليين يقع أمر توحيد قلوب المسلمين بما وصفته أيضاً، لأن الحنيفية البيضاء التي تيتمت منذ عهد بعيد صارت وحيدة بالمرة.

كلمة أخيرة

إنـي أفكـر فـي أن نقطتين مـن كتـابي هـذا قـد تثيران الاعتـراض وسـوء الظـن؛ أخـشى أن تـوقظ نـصائحي الخالـصة فـي أمـر الاتفـاق فـي الفـرق الإسـلامية المختلفـة- ولاسـيما الـشيعة- الهجمـات والمفتريـات القديمـة؛ التي نتجت عن تمسكي مصِرّا بأمر إصلاح البين مع الإمام يحيى باليمن. فقـد حـدث إذ ذاك أن لـم يكتـف المعارضـون بالاعتراضـات الماديـة والسياسية، بل وجد من يتحدثون في أروقة مجلس النواب والشيوخ بأني أميل إلى الزيديين لكوني بكتاشياً أباً عن جد!

والحق أني ولدت ونشأت على مذهب الإمام أبي حنيفة، ولم أسلك طريقة من الطرق الصوفية. حتى إذا وصلت إلى نتيجة تتبعاتي الأخيرة، آمنت مطمئناً بصفاء الدين المبين الإسلامي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن المحتمل جداً أن يكون أجدادي الذين كانوا محترفين الوغاء والغزو، قد انتموا إلى الطريقة البكتاشية، حين كانت لهذه الطريقة الصفة العسكرية الخاصة (٩٩). بيد أن أبي وأولياء أموري الذي تربيت في كنفهم وعطفهم بعد وفاته، كانوا سنيين أتقياء، ولاسيما عمي، فإنه كان نقشبندياً خالدياً.

فالملاحظات التي سردتها في كتابي ليست منتقلة إليّ لا عن طريق الوراثة ولا عن طريق تربيتي الأولية، ولا عن طريق نظريات علم الكلام؛

وإنما تولدت من قراءتي وتتبعاتي العلمية والتاريخية، وتجاريبي الشخصية ومشاهداتي، ومن الآراء الخاصة في السياسة الدينية- لو صح التعبير.

إني أعتقد أن حب بعض الأشخاص التاريخيين وبغضهم لا يجوز أن يكون لهما قيمة معنوية قادرة على أن تقيم ثلاثمائة مليوناً من النفوس بعضها على بعض، بعد ألف وثلاثمائة عام. والعاقل يتجنب المعاندة في مثل هذه الدعوى الواهية. ومن أحب دينه أراد اعتلاء كلمته؛ وهذه الإرادة قوة، والقوة تحدث بالوحدة وتقوم عليها.

وكذلك يُحتمل أن آرائي الجرة التي ذكرتها في مبحث معاتبة العلماء قد لا يستسيغها بعض المتعصبين، ولا يستطيع الإحاطة بها. ولكن يجب على من يستمسك بدينه أن يعتبر بسعة قريحة فخر الأنبياء وبعد نظره، وأن يتمثل سيرته في الحرية والسماح. ولا ينبغي له أن يغمض عينه عن نور النقد والمباحثة. فالرسول الأكرم الذي قال: «الحكمة ضالة المؤمن أخذها حيث وجدها» وقال: «أطلبوا العلم ولو بالصين»، إنما أراد بذلك إجلال العلوم والفنون التي هي نتيجة الذكاء.

من واجب العلماء، بل من واجب جميع الأمة- تقوية جامعتهم المذهبية وتوسيعها؟ فلذا يجب إرشاد الناس إلى تلك الجامعة بحسب استعداد الزمان، وربطهم بها. ولا يكون هذا مع الغفلة والتعلق بالكتب القديمة وحدها، بل يقتضي تتبع الترقيات العلمية وتطوراتها، وتوسيع أفق الأنظار والأفكار. إني لست مدعياً بأن كل ما ذكرته في كتابي هذا من

الآراء صحيح بلا ريب. وينبغي للعلماء كذلك ألا يحكموا ببطلانها كلها قبل التحقيق.

أما كلامي ونقدي لما نلاقي من المشاكل في الاندماج في عالم المدنية، بسبب تعلقنا الشديد ببعض العادات والتقاليد والأزياء التي لا صلة لها بالأسس الدينية، فقد يوجد- نظراً إلى ما حدث في تركيا من المقررات والإجراءات بعد كتابة تلك السطور- من يفهمه في صورة ميلي ومسايرتي لمجرى الأفكار الحديثة. ولكن إذا قُرئ كتابي بتدقيق وإمعان تبين توجيه الاعتراضات إلى خصوم العلماء أكثر من توجيهها إليهم، والإعراض عن آراء ذوي السلطة واتباعهم.

لقد اتقيت الإفراط والتفريط طول عمري ما استطاع عقلي فهمه. واستمسكت بحبل الاعتدال بإخلاص تام وقلب سليم، ولكني لم أستطع إرضاء جهة ما، فكنت كما يقال: «المخلصون على خطر عظيم!» وإني آمل من اللطف الإلهي أن ييسر لي الدخول في زمرة «من أتى الله بقلب سليم».

هوامش كتاب الدين والعلم

(١) لفظ «اللاديني»، وضعه في اللغة التركية المرحوم ضياكوك آلب، مقابلا لكلمة (Laique) الفرنسية. وكلمة لاييك مشتقة من اللغة اللاتينية، ومعناها غير متخصص في علم ومسلك. ويستعملها الألمان بمعنى غير متخصص بشكل «لاي». وخصص الفرنسيون إطلاقها بالذي لم يدخل في جماعة الرهبان. فلو ترجمت كلمة (Laïque) بكلمة «لا رهبانية» بدلاً من «لا دينية»، كانت أصح، وهذا معروف في ديننا تصديقاً بالأثر «لا رهبانية في الإسلام»، فلا يلزم من وصف الإنسان «لا ييك» أن يكون كافراً. وهذا الغلط في الترجمة كان يدفع الشبان إلى الانهماك في الإنكار بلا شبهة.

(٢) ليس المراد من اليقين هنا إدراك أصل الشيء، أو التيقن من ماهية الخلقة؛ فإن موضوع هذا الكتاب إثبات أن سر الخلقة لا يمكن إدراكه.

(٣) إن ما فهمته من بيان النسبيين هو أن سرعة الضوء أعظم سرعة يمكن قياسها، وهذا لا يدل على أن ليس في العالم سرعة أكبر منها، بل على حساب الرياضي الكبير «لاپلاس» أن سرعة الجاذبية أضعاف سرعة الضوء بسبعة ملايين مرة.

(٤) وكيفية السمع أيضاً كالرؤية، فالأصوات تؤثر في السامعة من مسافة على حسب شدتها. وكلما طالت المسافة ضعف تأثيرها إلى ألا يمكن استماعها ولو بواسطة الـ «مجافون» والـ «ميكروفون». ومن الممكن

obeikandi.com

زيادة مسافة الاستماع، لأن قوة الصوت تتناقص بحسب مربع المسافة؛ فالصوت الذي يسمع من مسافة متر بوضوح، يضعف سماعه من مسافة عشرة أمتار مئة مرة ... الخ. وهذه الآلات كذلك لا تفيد. أريد أن أذكر استطراداً الكيفية الآتية:

إن التليفون والراديو اللذين اخترعا أخيراً، يوصلان الكلام من مسيرة آلاف الكيلومترات، ويبدو ظاهراً أنهما مخالفان لقوانين انتشار الصوت. فهذا الحادث يقع لأن سيالاً آخر كهربياً لا ينقل الصوت، بل يحدث في مسافة بعيدة اهتزازات جوية، يحدث ببعضها الصوت عندنا. فعلى هذا لا يكون مخالفاً لقانون انتشار الصوت. فيستنتج من هذا أن ما تشاهد من التغييرات في قوانين الطبيعة أحياناً- وفي جملتها المعجزات- تحدث بتوسط قوى طبيعية أخرى لا نعرفها، فلا وجه لردها وإنكارها جملة، وهذه القوى مجهولة لنا، مع أنها مكنونة في الطبيعة العظمى، وليس بمستبعد تأثيرها في حين ما وفي صورة ما. ولهذا ليس إنكار كل ما يسمع من ادعاء بأنه مخالف لقوانين الطبيعة- بدون بحث وتدقيق- من العلم والعرفان، بل هو من الجهل والطغيان.

(٥) يتضح من الأمثلة المتقدمة أن كروية الأرض، وطول موجة الضوء وسرعتها- لا تسمح بالرؤية والرصد إلا إلى حد ما.

(٦) قد يبدو للقارئ تناقض بين شروعي في هذا التأليف، واعترافي هذا، ولكن الإنسان مجبول على أن يدافع عن أمر يحسبه حقاً على قدر طاقته. فقد ذهب أدراج الرياح ما سبق لي من خدمات قمت بها في

السلك الذي نشأت فيه من صغرى. ولم يبق لي ما أدخره لمشيبي إلا حبيبة وجداني؛ وهي عقيدتي الدينية. ولما رأيتها قد أشرفت على التزلزل فيما حولي- هاج قلبي، ودفعني إلى هذا التأليف؛ فالمرجو من القارئ الكريم أن يغض الطرْف عما عسى أن يرى من الخطأ والنقصان في بيان، وأن ينظر إليه بعين السماح والعفو. ومع ذلك أقول إن مثل هذا الكتاب، يجوز بل يلزم- أن يكتبه من لا يكون مقيداً بمذهب خاص. وقد أحسست حين التأليف، من مباحثاتي مع المتخصصين في علم دون علم- أنهم كثيراً ما يتقيدون بآرائهم الشخصية، ونصوص علمهم. وإني آمل أن يصدق المنصفون عند قراءتهم هذا الكتاب- أنه نتيجة فكر حر منزه عن التعصب. وأقول مع ذلك إني ما استغنيت عن الرجوع إلى آراء علمائنا، بل احتجت إليها راغباً فيها، واكتسبت منها فوائد.

(٧) لما فُتح صندوق الشهادة في زمن النبي سليمان عليه السلام، لم يوجد غير لوحين مشتملين على الكلمات العشر من التوراة. والذي وجدها الكاهن «خلقيا» وأخبر به الملك «يوشيا» من نسخ من التوراة قد ضاعت عند استيلاء بخت نصّر، والتي كتبت برواية النبي عزير عليه السلام، وبرواية أحبار اليهود من نسخ من التوراة محيت في زمن «أنتيوخس».

(٨) والقرآن الكريم- وإن كان قد وقع ترتيبه على أربع صور- لا تختلف نسخه في الآيات القرآنية. وما رواه الأعداء من أن بعض آياته حذف، وبعضها حرف- واه جداً. وقد رد المحققون عليها بأدلة قوية، لا

حاجة بنا إلى ذكرها في هذا الكتاب. وجميع مذاهب المسلمين متفقة على أنه محفوظ كما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم وتلاه.

(٩) لم يكن قصد «سنت أجوستن» بهذا القول على ما يفهم من ظاهره، وعلى ما يفسره مخالفوه عبثاً إلى هذا الحد؛ فإن قصده شدة التزام الإيمان، ولكن قوله يقتضي مع هذا قبول الإيمان من غير بحث عقلي. وشدة التمسك بالإيمان مطلوبة في الإسلام كذلك، ولكن الاستدلال العقلي لا يمنعها بل يعينها. والإنسان الكامل إذا تفكر في نفسه وفي الآفاق، اطمأن قلبه إلى الإيمان.

(١٠) لا يسند العقل إلى الله في الكتب الدينية، ويستعمل بدلاً منه كلمة العلم والحكمة.

(١١) أتى كثير من الحكماء منذ عهد «كنت» و «لاپلاس» بكثير من النظريات في أمر التكوين، ولكن ليس فيها ما يطمئن إليه القلب، وتزول به الشبهات. والعقل مضطر إلى البحث عن السبب الأول، وراء الأسباب التي ذكروها.

(١٢) السحابيات البدائية غير المشكلة (Amorphe) هي عناصر «الإيدروجين» و«النبليوم» و«الهليوم». وليس في الشموس وتوابعها من عنصر «النبليوم». وتعرف العناصر المؤلفة منها الأجرام السماوية بالتحليل الطيفي [واكتشفت أخيراً عناصر أخرى في السحابيات].

(١٣) أول من وضع نظرية حدوث المادة من تكاثف القوة، الذي يحدث من الزوابع الحادثة في الجو الأثيري- هو جُستاف لوبون من عظماء حكماء فرنسا. وأيدتها الكشوف الأخيرة وسلم بها أكثر الحكماء، بيد أن بعضهم اعترض عليها، فلذا ذكرناها بكلمة الشك.

(١٤) ذُكرت في كتب الفلسفة أدلة منطقية لإبطال تسلسل العلل إلى ما لا نهاية له، وإبطال الدور، وأجاب المخالفون عنها، ولكني صرفت النظر عن المناقشات التي لا توافق طريقة استدلالي، واستعنت لإثبات المدعي وإيضاح المرام- بأمثلة مأخوذة من الحادثات والكائنات.

(١٥) كلمة الجوهر ليست هنا بمعناها الفلسفي، بل بمعناها الرياضي. وتفيد هذه الكلمة في الميكانيكا نسبة ثقل شيء إلى مقدار التعجيل- وهو تزايد سرعة سقوط جسم في مكان خال من الهواء في كل ثانية، وهي ٩.٨ متراً في درجة عرضنا- وهذا هو المراد.

(١٦) إن ما حدث من التطورات والكشف في علم الفلك في المائة والخمسين سنة الأخيرة أسقط إلى حد ما قيمة نظرية لاپلاس في خلقة العالم. ولكن هذه الكيفية لن تقدر على انتقاص مقدار ذرة من الاقتناع بأن الخليقة ليست أثر مصادفة، فقد كان يُظن في أيام لاپلاس أن الأجرام الداخلة في المجموعة الشمسية تدور بلا شذوذ إلى جهة واحدة؛ أي من الغرب إلى الشرق تقريباً. وقد عُلم- ولاپلاس يُظهر نشوء هذه الكيفية من أسباب استقرار المجموعة الشمسية- بأن محور السيار «أورانوس» وأقماره الأربعة، وقمراً واحداً لكل من المشترى وزحل تدول إلى جهة

عكسية، فسقط بذلك دليل من أدلة لاپلاس. بيد أن تحقق نظام المجموعة الشمسية- برغم انتفاء أحد الأسباب المبني عليها- لم يثبت احتمال تأثر القدرة والحكمة الإلهية في ذلك فحسب، بل زاد فيه.

(١٧) الحساب الاحتمالي مشكل ومشوش جداً، وإنما سردته تسهيلاً لفهم القياس الذي ذكرته والذي قرأته في كتاب «المجهول L'inconnu» لكميل فلاماريون. وهذا القياس موافق لدساتير الحساب الاحتمالي؛ ولهذا لا يجوز الشك في صحته. وفي السماء كواكب لها مجموعات ليست خمسة وعشرين ولا خمسة وعشرين ألفاً، بل ينبغي أن نقبل بالقياس أنها بالغة مئات الملايين.

(١٨) تقريباً للعدد الذي يدل عليه الرقم المشتمل على ثلاثمائة من الأصفار بالمثال، رأيت من المناسب أن أذكر نبذاً عن تشكل المادة.

تتركب الأجسام من أجزاء صغيرة جداً، كان الحكماء من قديم الزمان يفرضون وجودها. وتسمى هذه الأجزاء «مولكول Molécules» في اللغات الأوربية والجزء الفرد في اللغة العثمانية وسميت أخيراً بالذرات. وهذه الأجزاء أو الذرات كان يظن عدم تجزئها. وعلم أخيراً أنها متجزئة في الأجسام البسيطة إلى أجزاء متجانسة، وفي الأجسام المركبة إلى أجزاء مختلفة تسمى «أتوم». وتبين من المكشوفات الحديثة (كالراديوم وغيره)، وبالتجارب والحسابات الموثوق بها، أن الأتوم مركب من جزء أصلي يسمى الـ «پروتون»، أو «النوكليون» ومن «إلكترون» أو «إلكترونات»؛ (كهيربات) تدور حول الپروتون.

والپروتـون أي الجـزء الأصـلي لأتـوم الإيـدروجين أصـغر الموجـدات المادية، التي كـشفت حتـى الآن، (بناء علـى النظريات الحديثة، حـدوث المادة من تكاثف القـوة، وتكـون پروتـون الإيدروجين مـن حبيبات كثيـرة للقـوة. وليـست هـذه الجهـة متعلقـة ببحثنـا، ولكـن يـدبو لنـا أن المـاديين بعيدون كل البعد عن إدراك وجه تشكل المادة التي يعبدونها). وقطر هذا الپروتون- بحسب الحسابات والتجارب المطابقة للعقل- جزء من ست مئة تريليون جزء من المتر. وأصغر ما يميزه البصر بلا واسطة الأجهزة هو جـزء مـن عـشرة آلاف جـزء مـن المتـر أي معـشار معـشار الـذراع (دسـيمليمتر). فنـسبة «الپروتـون» وهـو أصـغر الموجـودات الماديـة إلـى «ديسيمليمتر» وهو أصغر المرئيات، كنسبة أصغر المرئيات هذا إلى نصف قطر الكرة الأرضية، الذي هو ستة آلاف كيلومتر.

فـي علـم الفلـك تـستعمل الـسنة الـضوئية وحـدة قياسـية لبيـان الأبعـاد السماوية، كاستعمال المتر أو الكيلومتر لبيان الطول أو المسافة على ظهر الأرض. والـسنة الـضوئية هـي المـسافة التي يقطعها الـضوء فـي سنة. وهـو يقطـع ثلاثمائـة ألـف كيلـومتر فـي الثانيـة. فمـسافة الـسنة الـضوئية عـشرة تريليونات كيلـومتر تقريبـاً (وتحقيقـاً ٩،٥٦١،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ كيلـومتراً). فلنحفظ هـذه الكميـة الـصغرى والعظمـى فـي الـذهن، ولنفـرض الپروتـون مكعباً، ونضع الپروتونات بعضها على بعض بلا فاصل ولا مسافة بينها، بمقدار الرقم الذي فيه ثلاثمائة مرتبة عددية، يحدث حجم مكعب، يكون ضلعه بمقدار رقـم مراتبه العددية ٦٩ مـن الـسنين الـضوئية. ويعجز إدراك

البشر عن الإحاطة بمثل هذا العدد. ونسبة هذا إلى طول القطر الكبير لمجرتنا، (وهو يقدر بعشرة آلاف سنة ضوئية) كنسبة هذا القطر إلى قطر البروتون تقريباً.

إني مع إيماني الكامل بعظمة الخليقة، أشك في وجود الأتومات بهذا المقدار في العالم!

(١٩) حياة الأتومات لبوتاريك (Bautaric).

(٢٠) الأثير، وهو من الفرضيات، وليست له علاقة بالمادية، بناءً على تعريف الذين فرضوه. فلو سلم بأنه حال انبساط القدرة الصمدانية وانتشارها، فلا مانع من التصديق بأزليته.

(٢١) إذا لاحظنا أن مرور الزمان وتماديه يكون متناسباً تناسباً عددياً نحو:

١ ٢ ٣ ٤ ١٠ ٢٠؛ ونسبة الاحتمالات كما فصلنا فيما سلف، تترقى متناسباً تناسباً هندسياً نحو: ٢ ٤ ٨ ١٦ ١٠٢٤ ١٠٤٨٥٧٦؛ فهذه الدعوى الواهية تفقد قيمتها. ولكي نفهم هذا القول استحسنا ذكر ما يأتي:

بناءً على النظرية التي سردها المحققون من علماء الفلك والتكوين، حدثت العوالم مما وقع من الخلل في السحابيات، بسبب خارق للعادة كالتصادم مع أجسام خارجية، أو بتكثفها وانقباضها إلى مركزها، ومما تولد من الحرارة من هذا الحادث، ولا حاجة إلى نظام يضمن تطورها

واستقرارها إلا منذ بدأ هذا الاحتلال فيها. ولو سلمنا بأن أجزاء المادة التي تتكون منها السحابيات أزلية، فاختلالها وتطورها حادث، لأن له مبدأ. وتشاهد في السماء سحابيات غير مكونة (Amorphe) في حال ابتدائي، ومنها ما تطورت وحدثت في جوها شموس ومجموعات شمسية كاملة انطلقت من غمام السديم. وكل ما يتحول فهو حادث. فإذا رمزنا إلى عدد السنين التي مضت من بدء هذا الاحتلال إلى يومنا هذا بحرف «ن»، وفرضنا في مقدار الموجودات الكونية من الأتومات إلى الشموس والسيارات وما فيها- وهو عدد يكاد يكون لا نهائياً- وسلمنا بأن احتمال التصادف في الخلقة ليس كواحد على تريليون، كما أثبته لاپلاس للمجموعة الشمسية، بل كواحد على اثنين، صار مخرج نسبة لاپلاس ($٢^{ن}$)، نظراً إلى إثباتنا فيما سبق أن استقرار كل موجود يتبع نظاماً أصلياً واحداً، فهو عدد لا يحيط به العقل. ويُرى من السلسلتين اللتين ذكرتهما آنفاً أن حاصل ن = ١٠ وحاصل $٢^{ن}$ = ١٠٢٤ وأن حاصل ن = ٢٠ وحاصل $٢^{ن}$ يكون أكثر من مليون، وأن حاصل ن = ٣٠ يكون $٢^{ن}$ أكثر من مليار وهلم جراً.

(٢٢) لمناسبة المقام استحسنت أن أذكر في الحاشية كلمات عن هذه المسألة التي شوشت أذهان الشباب.

إنه بعد أن ثبت من تدقيقات الحكماء، ولاسيما پاستور، وتجاربهم العلمية- عدم تحمل الحياة الحيوانية والنباتية، الحرارة الشديدة، واتضح عدم إمكان صدورها فوراً من تلقاء نفسها، صارت كيفية نشوء الحياة في

obeikandi.com

الكرة الأرضية موضع تأمل. فقد فُرض انتقال عنصر الحياة إلى الأرض بواسطة النيازك، التي انشقت لسبب ما من بعض الأجرام السماوية المسكونة من قبل، ولكن تحقق أخيراً عدم إمكان هذا التصور. وصار فرض فيلسوف السويد «سونت أرنيوس» أكثر قبولاً، وهو:

إن أية پروتوپلاسم كانت على كرة مسكونة من قبل، يمكن أن تعلق بزوبعة، وتصعد إلى أعلى طبقات الجو النسيمي، التي يتعلق فيها الغبار السماوي الحامل للكهربية السلبية المحدثة للفجر الشمالي. وتكتسب منه الكهربية السلبية. ولما كانت الكهربيات من جنس واحد متنافرة، يدفع بعضها بعضا، اندفعت تلك الجرثومة إلى الفضاء، وعلقت فيها بذرة من غبار العالم، ووصلت إلى كرة غير مسكونة خمدت حرارتها إلى درجة تساعد على الحياة. وظلت سنين كثيرة طائرة في الجو، ثم نزلت إلى سطح كرة وولدت فيها الحياة.

وتصل هذه الجرثومة (الپروتوپلاسم) من الأرض إلى المريخ في عشرين يوماً (في بعدهما الأصغر)، وإلى المشترى في ثمانين يوما، وإلى نپتون في خمسة عشر شهراً، وإلى مدار الشمس الأقرب إلينا في تسعة آلاف سنة. وقد ثبت بالتجارب أن البكتريات تحافظ على خاصية النمو سنين عديدة في ٢٥٠ درجة تحت الصفر في مكان خال من الهواء والرطوبة. ومهما يكن الأمر فهذه الفرضيات والتأويلات وإن صورت انتقال الحياة من كرة إلى كرة أخرى، فمن أين وصلت الحياة إلى الكرة الأولى، التي هي مبدأ الحركة؟!

إن الجرثومة التي فُرض وصولها إلى الأرض بالصورة المذكورة آنفاً، ونشأت منها أنواع النباتات والحيوانات بطريق التطور- محل نظر ومناقشة كما سيأتي:

ضمّن علماء جيولوجيا في نتيجة بحوثهم وتحقيقاتهم أن الأرض بدأت تتصلب ويتكون لها قشر قبل مليارين من السنين، وأنها بعد تصلبها أحاط بها بخار الماء زمناً طويلاً، ثم تكاثف البخار وتجمع، وصار سطح الأرض كله تحت الماء، فاعتدلت حرارته تدريجياً. وهذا ما يسلم به أكثر الحكماء. وبما أنه قد ثبت بالتجارب أن مادة الجيلاتين التي حدثت منها البروتوپلاسم- وهي أدنى حاملة الحياة- لا تتحمل الحرارة فوق أربعين درجة مدة طويلة؛ فلذا لا يمكن حدوث الحياة الحيوانية إلا في الربع الأخير من تكون قشرة الأرض، أي قبل خمسمائة مليون سنة في الماء، لأن الأرض كانت محاطة بالماء حينئذ. وعند ظهور اليبس فوق سطح الماء- إما بتناقص المياه أو بارتفاع الطين بدفع البراكين تدريجياً- كانت الجراثيم أو الحيوانات قد ألقيت فيه بحادثتي المد والجزر، وأحدثت ما كان منها قابلاً للامتزاج بالمحيط النسيمي بحسب طبيعتها- النباتات والحيوانات البرية بالتطور.

خمسمائة مليون سنة! مدة طويلة بلا شك، ولكن ليست غير متناهية، وكفايتها لصيرورة البروتوپلاسم من تلقاء نفسها إنساناً بالتطور التدريجي- محل نظر. والتطور التدريجي لابد أن يكون بالتسلسل الهندسي تقريباً، لأن كل ما ينضم إلى الأصل يزيد قوته وقابليته للجر والاقتباس، فيزداد

المكسب في كل لحظة وفي كل حد ودرجة. والدرجات الأخيرة تترقى أزيد من الدرجات المتقدمة.

إذا ألقينا نظرة إلى الماضي بملاحظة هذا الأساس ألفينا أن نوع البشر تمدنت منذ خمسة آلاف سنة أو ستة آلاف- تمدناً عظيماً، وقيدت تاريخ الأمكنة التي استوطنتها. فمنذ ذلك الزمان ما عُلم أن نوعاً من الحيوانات تغير إلى نوع آخر بالتطور. حدث باختلاط النسل بعض تغير في الخيل والكلاب والدجاج، في شكلها وخواصها، أو في حيوانات نقلت من إقليم آخر حدثت فيها تبدلات عضوية كي تقاوم مؤثرات الوطن الجديد وشدائده، بيد أن هذه التبدلات القليلة لا تدل على تبدل نوع بنوع آخر. وتبدل لون الإنسان بحسب تبدل الإقليم أو ترقق جلد الحيوان أو تغلظه لا يكون علامة لتبدل النوع.

ومن المعلوم أن الحيوانات من أنواع مختلفة لا يلقح بعضها بعضا، ولو لقح لم تنتج من هذا التلقيح نتيجة، وإن ولدت كان ولدها عقيماً كالبغل. ولم توجد في المتحجرات (Paléontologie) سلسلة أو أمارة تدل على ارتباط أنواع الحيوانات بعضها ببعض. وجد في المتحجرات هيكل عظمي لحيوان سمي اكويدي (Equidé) يظن أنه أصل جنس الخيل والحمير وحمار الوحش والبقر، وهو أصغر من الخيل الموجودة الآن، وأنواعه مختلفة: نوع في رجله حافر كالخيل، ونوع له ظلف كالبقر، ونوع له أظلاف. وحتى لو فرض أن نسل الفرس ظهر منه فإنه لم توجد سلسلة تنتهي في مراتبها السفلى إلى الوزغ مثلاً أو إلى الحوت ومنها إلى

الحشرات وإلى البكتريات. ونحن لا ننكر كذلك التطور في الحيوانات، والتحولات القليلة في عضوياتها، ولكن حدوث كافة الحيوانات من پروتوپلاسما وارتقاءها إلى أن تصير إنساناً في زمان محدود- غير خليق بالقبول، ولا قابل للإثبات.

أما الإنسان فلم تكن قدرته ومهارته في نحت التماثيل قبل ستة آلاف سنة أقل مما هي في زماننا. ويستدل من النظر إلى الأصنام والتماثيل التي انتقلت إلينا أن أشكال الناس في ذلك الزمان وجثثهم ليست مخالفة لأشكالنا وجثثنا. فإذن لا يتصور رجل له إلمام بالتاريخ وجود فروق بين رمسيس وكسرى وإسكندر وقيصر، وبين قواد زماننا وساسته، وكذا بين أقليدس وسقراط وكونفوشيوس، وبين حكماء عصرنا، فى المخ والقابلية للفكر، وإن كانوا لا يعرفون أكثر علوم عصرنا وفنونه، لأنها تقدمت بعدهم بالتناسب الهندسي، ولكن هذا لا يدل على عدم قدرتهم على الإحاطة بعلوم عصرنا، بل إن لهم شرف وضع الأسس للعلوم الحاضرة. وقد وجدت في الزمن الأخير أجساد من كانوا عائشين قبل عشرة آلاف أو خمسة عشر ألف سنة- سالمة من الفساد في قبورها ومتحجرة، بفضل المواد الكيميائية الواقية، وهي لا تفترق عن بنية من في زماننا بشيء، حتى بألوان الجلود.

وقد اكتشفت بالحفريات الأخيرة آثار متعلقة بمن كانوا عائشين قبل مئتي ألف عام، وهياكل عظام أجسادهم، وليس فيها فرق عظيم عن الإنسان الموجود الآن؛ ووجدت أسلحة بدائية مصنوعة من الأحجار.

وترى على الأسلحة والمغارات التي سكنوها تصاوير منحوتة منظمة. فقد كانوا إذن متمدينين أكثر من قبائل إفريقية وأوستراليا والأسكيمو الموجودين اليوم.

فمع أن حدود التطور الأخيرة كان ينبغي أن تترقى بسرعة أكثر بالنسبة إلى الحدود المتقدمة، لم يظهر فيها فرق محسوس في آلاف السنين؛ فيلزم للرقي من جرثومة پروتوپلاسما أو من حال البهيمية إلى حال القدرة على صنع الأسلحة ونحت التصاوير نحتاً متقناً من تلقاء نفسه (من غير إلهام الغيب)- أمد طويل جداً. إذا لم يُظهر التطور التدريجي فرقاً في نوع ذوي الأرواح وفي شكله في خمسة آلاف سنة أو عشرة آلاف، أو مائة ألف أو مائتي ألف من السنين (اكتشف أخيراً في الصين عظام إنسان قدر قدمها بمليون سنة)، فلا يسلم العقل بتحول الجرثومة من (بروتوبلاسما)- إنساناً في خمسمائة مليون من السنين.

وأما فرضية نشوء الإنسان من تطور القردة فليست بمبنية على أساس. فالشمپانزي- وهو أذكى أنواع القردة- ما استطاع إلى الآن أن يتعلم كلمة واحدة من لسان الإنسان، على حين أن أدنى نوع الإنسان الأوسترالي والزنجي المتوحش إذا رُبوا من صغرهم يمكنهم أن يتعلموا لسان المتمدنين من الناس، ويعرفوا الصنائع، بل يمكنهم أن يتعلموا كثيراً من العلوم وحتى الفلسفة. فعلى هذا هناك فاصل عظيم بين الطبقة السفلى للإنسان، والطبقة العليا للقردة. لو كان هذان النوعان من الحيوان في سلسلة واحدة لم تبق الحدود البدائية وتختفي المراتب المتوسطة دون

obeikandi.com

أن تترك أثراً، مع أنها يلزم أن تدوم أكثر منها؟ ولِم لَم يشتمل قانون بقاء الأصلح على الحدود البدائية وانحصر اشتماله على المراتب المتوسطة؟

وصف جُستاف لوبون- في كتابه المسمى «الحضارات البدائية»- القبائل الوحشية معتمداً على روايات بعض الرحالة بعدم الأهلية لشيء، وبسوء الطبع والقسوة وأنهم أشبه بالحيوانات منهم بالإنسان. واستدل من هذا الوصف على أنهم في المراتب المتوسطة بين الإنسان والحيوان في سلسلة التطور.

وليس لي علم بحياة المتوحشين الاجتماعية من أبحاثي الخاصة، بل من روايات كتب السائحين، فلذا لا أقدر على الاعتراض في هذا الشأن، ولكن هؤلاء الأقوام، إذ نظر إليهم منفردين فلا أشارك هذا الفيلسوف في رأيه. فقد عرفت مذ كنت صغيراً في منزلي وعند كثير من أقاربي وأصدقائي معتقين من العبيد من قبائل مختلفة في إفريقية، وأولادهم الأحرار. فأولاد إفريقية إذا أُخذوا من أهليهم وهم صغار ووقعوا في أيد طيبة كانوا أصدقاء صالحين بلا استثناء. حقاً أنهم لم يكن لبعضهم استعداداً لتعلم الحساب، ولكن فيهم الأذكياء كذلك مثل نادرأغا- أحد خصيان السلطان عبد الحميد- الذي كانت له كفاية في جميع المعارف، ولاسيما الحساب والكتابة، وقد نشأ من أغوات قصور العثمانيين من يعد من العلماء والأدباء، وصادفت فيهم من ولدوا في تركيا وآباؤهم من إفريقية، وصاروا مديري التحريرات، ومفتشي الحسابات، وأطباء حذاقاً وضباطاً أركان حرب. وبخلاف ذلك الحيوانات الأهلية التي تطوف حولنا

من زمان بعيد، والوحوش والطيور التي تعيش وتتربى في حدائق الحيوان جيلاً بعد جيل، هل يشاهد فيها ما اقترب إلى الإنسان بخصلة ما؟!

إن الأقوام والقبائل المختلفة وإن لم يقطعوا مراحل التمدن بدرجة واحدة، فأفرادهم يتساوون في القابلية والفطرية مع أفراد سائر الأمم. وكما أن هناك تفاوتاً في القابلية بين أفراد قوم واحد، فإن هناك تفاوتاً كذلك في القابلية بين القبائل والشعوب الإنسانية، ولكن الإنسان إنسان، والحيوان حيوان بوجه عام.

أحسب مستدلاً بهذه الملاحظات أن نظرية تطور الحيوان ليست نتيجة تدقيق عميق، ومع ذلك أولع بها الناس، من أجل الآراء التي وجهت من قرن أو قرنين على الحكومات المستبدة المدعية الاعتماد على الأديان، ونفرت الناس من الدين. فكلفوا بالنظريات التي تخالف العقائد الدينية.

وكثير من علماء التاريخ الطبيعي لا يقرون بالعلاقة النوعية بين الإنسان والقرد.

أولاً: لأن غذاء القرد الطبيعي الفواكه، وأسنان الإنسان وأجهزته الهضمية صالحة لأكل كل شيء. وهو على قول المؤرخين لم يعش في الزمان الأول إلا على اللحم، ولو كان لحم أبناء نوعه. وكيف يقبل العقل أن ينشأ نوعان مختلفان في أصل غذائهما إلى هذا الحد- بعضهما من بعض.

Obeikandi.com

وثانياً: لأن الزاوية الوجهية للإنسان تتراوح بين ثمانين وخمس وثمانين درجة، في حين أن الزاوية الوجهية للقردة ٢٦ درجة. وهكذا الزاوية الوجهية لسائر الحيوانات أو أكثر.

وثالثاً: لأن ثقل مخ رأس الإنسان يتراوح ما بين ١١٠٠ و١٣٠٠ جراماً، وثقل مخ رأس القرد «أورانج أوتان» خمسمائة جرام، مع أنه أكبر من الإنسان حجماً. وعدم حاجة أولاد القردة حين ولادتها إلى المعونة وسرعة نموها تدل على أنها من البهائم طبيعة. إنه وإن سُلم بأن القرد أشبه الحيوان بالإنسان من جهة البنية والصورة- بيد أنه من جهة الذكاء أبعد عنه من كثير من الحيوانات.

ولما تبين بأمثال هذه الملاحظات والتدقيقات الأخيرة بطلان أقوى أدلة مروجي نظرية التطور، وهو «أن الجنين يتحول في رحم أمه إلى أشكال شبيهة بأجنة الحيوانات التي مثلها الإنسان حين تطوره»، فُقدت أهمية نظرية التطور التي وضعها «لامارك» و «داروين» وبالغ فيها «هيكل» ومن ساهمه. إن قانون التطور سائر في العالم، ولكن المستبعد هو تطور جرثومة من تلقاء نفسها في الكرة الأرضية المحدد عمرها، حتى تصير إنساناً. ووجود القانون لا يغني الإنسان عن الاحتياج الفطري إلى البحث عن واضعه.

وظهرت في الزمان الأخيرة فرضية الوثوب (Mutation) أي تطور أنواع الحيوانات بالوثبات السريعة والفورية، وإن كانت استنتجت أولاً من التحولات السريعة المشاهدة في النباتات، إلا أننا لا نعلم إلى متى يدوم

obeikandi.com

رونقها (موضتها). ثم إننا إذا سلمنا بالتحولات السريعة فلابد لنا من البحث عن سببها، ولم يبين واضعوها أنهم اكتشفوا لها سبباً.

قال فرنكلين العالم الأمريكي المتخصص في علم الحيوان في كتابه: «سير التطور البشري»: «إن تطور الإنسان من غير استمداد من قوة معنوية، وتقدمه في الطريق المرسوم للرقي، من الحيوانية إلى الإنسانية- يستحيل كما يستحيل في مطبعة جمع كتاب من تمثيليات شكسبير بإلقاء الحروف كيفما اتفق بدون تفكير. وليس من شك في أن التطور أوجد الإنسان لا من المصادفات البحتة، بل هو تطور كانت فيه من أوله إلى آخره يد الله القادر المتعال». إن هذه تذكرة من رجل عليم، للذين ليس لهم اختصاص في علم من العلوم وينتهزون الفرص للإنكار كلما سمعوا من الروايات الصادرة من عقول الحمقى.

إن امرأ متتبعا ما كُتب عن علم الجيولوجيا وعلم الحيوان والنبات- ولوتتبعاً سطحياً- يطلع على الأسرار والحكم الخفية التي تدل بتنوعها وتعددها وتوجهها بكمال الانتظام إلى هدف معين، على تأثير الصانع العليم الحكيم، لا باحتمال أربعة تريليونات بالنسبة إلى واحد، بل كنسبة حاصل ضرب تريليون في تريليون إلى واحد. فكل الموجودات أثر قدرة الخالق القدوس وحكمته. وآمنت بهذه الحقيقة بكمال الاطمئنان، وصدقتها بوجداني وعقلي وجناني.

(٢٣) هذه نظرة منصفة، ومتفقة مع الدين، ولكن المتأخرين من العلماء لا يستبعدون خلق المادة وتكوينها، كالجهلة المنكرين. فقد ثبت بعدما

اكتشف الراديوم في الزمان الأخير أن أصغر ذرة مادية تكمن فيها قوة عظيمة خارقة للعادة، وتبين بالتجارب الصحيحة والحسابات الرياضية- أن الأمر ليس كما ظُن قديماً، بأن القوة عرض غير مفارق للمادة مربوط بها، بل ذهب إلى أن المادة حدثت من تكاثف القوة. فإذا تحقق هذا الرأي تماماً آمن كل مرتاب بأن المادة خُلقت بقدرة الخالق المتعال، ذي القوة المتين.

(٢٤) ص ٣٧. الجمل التي داخل الأقواس الصغيرة « » هي أقوال المعارضين والتي ذكرت خارجها هي ملاحظاتي.

(٢٥) كل ما حكيت عما يتعلق بعلم الفلك، وعن الأتومات يستند إلى تجارب وحسابات العلماء. وأما هذه المدعيات فليست إلا فروضاً وتصورات مجردة.

(٢٦) استخرج العالم الرياضي الشهير آينشتين لتعيين تزايد جوهر الشيء عند الحركة الدستور الآتي:

(جو $= \frac{ج}{\sqrt{1 - \frac{س^2}{ص^2}}}$) «فالجو» رمز لجوهر الشيء في الحركة و «جـ» لجوهره في السكون و «س» لسرعته و «ص» لسرعة الضوء. وأنه يفرض أن «ص» و«جـ» و «س» تكون هذه النسبة: «جو» $\frac{0}{1-1} = \frac{0}{0}$ وهذه المعادلة الجبرية تدل على كل قيمة غير معينة. ويجوز أن معارضا يستفيد من هذا ويدعى قائلاً: إنه وإن لم يكن للأثير الراكد جوهر إلا أنه يحدث منه

obeikandl.com

جوهر، إذا كانت سرعة الزوبعة مساوية لسرعة الضياء. وأما الدستور الذي يبنى عليه النسبيون كل نظرياتهم، وهو ($ل' = ل\sqrt{1-\frac{س^2}{ص^2}}$) فيفرض فيه أن س = ص فيصير «ل'» صفراً. و «ل'»هو بعد الشيء المتحرك في اتجاه الحركة و «ل» بعد الجسم نفسه في حالة السكون؛ ويستدل منه على أن المادة لا تحدث من حركة الشيء بسرعة الضوء، وأن المادة ذات أبعاد ثلاثة. وأن فرض (س > ص) أي أن «س» أعظم من «ص» صارت قيمة «جو» أو «ل'» سلبية وهي لا تدل على شيء في الوجود.

(٢٧) والصفات الإلهية بناءً على العقيدة الإسلامية هي الصفات السلبية، وهي: الوجود، والقدم، والبقاء، والوجدانية، والمخالفة للحوادث، والقيام بالنفس. والصفات الثبوتية هي: الحياة والعلم، والسمع، والبصر، والإرادة، والقدرة، والكلام (الكلام النفسي)، والتكوين. فأية صفة منها مغايرة للعقل، ومناقضة للعلم؟!

(٢٨) بما أن نظريات النسبية التي اكتُشفت أخيراً لا علاقة لها بأمر التكوين، فإني أسكت عنها. وقد اعترف النسبيون بأن لا علاقة لنظرياتهم بهذا الأمر. كما قال جان بكرل وهو من الحكماء المعروفين: إن هذه النظريات لا تتعالى إلى البحث في الأسباب الغامضة للحوادث؛ فلا تقول شيئاً عن أصل هيولي العالم وطبيعته، بل هي عبارة عن قوانين الطبيعة باللغة الرياضية، وتفسيرها تفسيراً هندسياً، وتحليلها تحليلاً تاماً. وقال «أدنغتون»: إن «هذه النظريات علم الأشكال وليس علم الجوهر».

obeikandi.com

(٢٩) جُستاف لوبون، تطور القوى (Evolution des forces) ص٣٦٦ (في النسخة الفرنسية).

(٣٠) أكرر مرة أخرى أني لا أتصور بهذا الكلام أن الله هو هذه القوة- حاشا وكلا- ولكني أريد أن أفهِم أن الخواص التي تُسلِّم بوجودها في القوى والأسباب الثانية- من العبث إنكار وجودها في العلة الأصلية الأولى.

(٣١) كان لابنز (Laipnitz) وهو من فلاسفة الألمان يقول بتشكل العالم الجسماني والروحاني من عنصر بسيط غير متجزئ عار عن الأبعاد، فعال، حاو للقوة والحياة. وإذا كان الأمر كذلك فلم يُحرم الحياة القسم الأعظم من الكائنات، المتشكل من ذلك العنصر بعينه، المحتوى على الماديات والجمادات؟!

(٣٢) ليس لفظ «مشترك المقياس» هنا بمعناه الرياضي. فلذا يلزم أن نفصله قليلاً، فنقول:

اتخذ الناس لمساحة الأبعاد ولتعيين المقادير مقياساً بالتمثيل بالمتر، يقاس به وبأجزائه وأمثاله الطول والمسافة، وبمربعه ومكعبه أو أجزائهما وأمثالهما السطوح والحجوم، وبثقله الماء الذي يستوعبه مكعب ديسميتره، وبأمثالها توزن الأثقال، وبكيلوجرامتره [القوة التي ترفع ثقل الكيلو جرام إلى ارتفاع متر] وأجزائها وأمثالها القوة الميكانيكية؛ وبسعره [الكالوري وهو مقدار الحرارة الذي يرفع سخونة كيلو جرام من الماء

بدرجة واحدة] آثار الحرورة. وبمثل هذه المقاييس يُقدَّر انبساط البحار والضغط الجوي وارتفاع الصوت وشدة الضوء، والكهربية والمغناطيسية، وحتى عيار المسكوكات المعدنية. وترجع كل هذه المقاييس بلا واسطة أو بواسطة إلى نظام المتر. وعلى هذا كافة الأجسام والقوى المادية الموجودة في الدنيا مشتركة المقياس، ولكن ليس للروحانيات مقياس. فلا يقاس ذكاء الإنسان وغيرته وحميته بطول قامته وسعة صدره أو بثقل جسمه.

(٣٣) يذكر المحققون في كتبهم حوادث غريبة في ظهور النبات وتولد الحيوان، ولكني التزمت ذكر أمثلة من أحوال عادية، وحادثات تقع كل يوم، ويسهل تحقيقها.

(٣٤) الخطوط الشعاعية منحنية، بناءً على حسابات آينشتين، والدائرة التي ترسمها هذه الخطوط يقطعها الضوء في تسعمائة مليون سنة. وعلى محيط الدائرة نقطتان أبعد ما بينهما متقابلتان قطراً، فالبعد الذي يمكن رؤيته- بفرض تكمل الآلات الرصدية إلى هذا الحد- لا يتجاوز هذه الدرجة.

(٣٥) على قول بعض الفلكيين، تسير مجرتنا نحو برج الجدي بسرعة «٧٥٠» كيلومتر في الثانية. وهذه الحسابات طويلة ومشكلة، ولكنها جديرة بالثقة، لاعتمادها على الأرصاد.

openeikandi.com

(٣٦) ذهب الفلاسفة في خصوص الزمان والفضاء إلى قياسات وفرضيات عسيرة التعداد، وأجروا في هذا الوادي أنهاراً من المداد؛ وملاحظاتي في هذا الباب مخالفة لأراء بعض المعاصرين والمتقدمين من الحكماء. ولكني أزعم أن الأمثلة التي ذكرتها آنفاً- والتي هي ترجمان وجدان البشر- خليقة أن تكون عوناً على تفهم ما سردته من الآراء. وأما بُعد الاختلافات في تناهي الفضاء وعدم تناهيه، فأظن أنه نشأ من الاختلافات في فهمه وتعريفه. إن كان المراد من الفضاء الوسط الأثيري (Milieu)، فالأحرى بأن يوصف بـ «لا خلاء ولا ملاء»؛ فحينئذ يمكن أن تقبل محدوديته، وإن كان الأثير ساكناً سكوناً مطلقاً، والعوالم تسير في داخله، ولا يمكن أن تتجاوز عن حدوده، لأن تلك الحدود تصير لها هاوية حائلة للماديات؛ لأنها لو جاوزتها لانتشرت الموجودات المادية بانحلال روابطها كلها، بناءً على النظريات الأخيرة القائلة بالأثير. وإذا كان الوسط الأثيري- من قبيل السفينة التي تنقل الأشياء والأشخاص الثابتة والمتحركة في داخلها- سائراً ومتحركاً بالحركة العامة الانتقالية، مستصحباً جميع الكائنات، فيلزم أن يكون الفضاء الخالي الذي يسير فيه الوسط أو الأوساط الأثيرية المشتملة على المجرات والعوالم سيراً سرمدياً- غير متناه.

(٣٧) إن طول كل موجة هو المسافة الواقعة بين أعلى نقطتي موجتين؛ فطول موجة الشعاع الأحمر $\frac{8}{10}$ من الميكرون (الميكرون $\frac{1}{1,000,000}$ من المتر)، وطول موجة الشعاع البنفسجي $\frac{1}{10}$ من الميكرون، وطول موجات

الأشعة الكيميائية فوق البنفسجية أصغر من ذلك، وموجات الأشعة الحرورية تحت الحمراء أعلى من الميكرون؛ وتمتد الموجات الكهربية حتى الكيلومترات.

(٣٨) كان العلامة آينشتين يذهب إلى عدم الحاجة لمثل هذه الواسطة لانتشار الضوء، ولكنه اعترف فيما بعد بلزوم وجود لطيف، عار عن المادية والفعل والحركة، يكون واسطة للجاذبية والتجليات الطبيعية في الكائنات قاطبة؛ وبهذا اعترف ضمناً بوجود أثير.

(٣٩) في إمكان المعارضين لهذا أن يوجهوا هذا السؤال المعترض: «ما الحكمة في وجود قوى ضارة تدفع الإنسان إلى الشر؟». إذا سلِّم بعسر إدراك المقاصد الخفية من أفعال الله سبحانه وتعالى كعسر إدراك ذاته- فقد هذا السؤال قيمته. ومع ذلك يمكن إبداء الملاحظة الآتية على أن يكون جواباً عقلياً:

بضده ينكشف كل أمر وكل حال في هذه الدنيا؛ ففيها الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، وقبول الحياة الإنسانية كما هي شرط للمباحثة. ومن المسلم بأن تنازع البقاء في هذه الدنيا، والتطور التدريجي المترتب عليه- إنما يحدثان بتصادم الأضداد. فلو كان كل أفراد البشر عباد ورعين، مجردين عن الميول والشهوات الدنيوية- لما تم هذا الرقي الذي نشاهده، ولحرمت البشرية حتى نمد يد أسباب حياتها. على حين أن المخلوقات كلها- حتى أصغرها وألطفها- من ضروريات ملك هذه الخليقة وخدمه

obeikandi.com

وعماله. وسيظل الإنسان- عالماً أو جاهلاً على خدمة المراد الإلهي وملك الخليقة ما وسعه ذلك، خاضعاً لقانون الأضداد.

وخليق بالذكر- بعد التسليم بهذا الأساس- أن بعض العقائد العتيقة السخيفة، التي تجعل القوة الشيطانية الشريرة، معادلة للذات الرحمانية، وهي الخير المطلق- باطل بطلاناً تماماً. فالله الواحد الأحد، هو خالق الكل. ومن مخلوقاته القوى الشيطانية. وليست هذه القوى إلا من خدم المقاصد الإلهية الخفية، وعمال ملك الخليقة.

(٤٠) يرى المستر فوكس من مشاهير علماء الطبيعة أن عدد اهتزازات الجو والأثير، وتموجه في الثانية، لحدوث المحسوسات اللطيفة المنتشرة، بالتموجات الجوية والأثيرية، كالصوت والكهربا والضوء- متناسبة مع قوة العدد «٢» (حاصل رفعه). فلأجل حدوث الصوت يلزم تموج قوة الجو «٢» من «$٢^{٥}$» إلى «$٢^{١٥}$» أي من ٣٢ إلى نيف و٣٢ ألف مرة. ولحدوث الكهرباء يتموج الأثير «$٢^{٣٠}$» أي نيف ومليار مرة؛ ولظهور الحرارة والضوء من «$٢^{٤٨}$» إلى «$٢^{٥٠}$» أي ٢٨٠ تريليون وأكثر من كتريليون مرة؛ ولظهور أشعة أكس × (رونتجن وشعاعين منتشرين من راديوم) من «$٢^{٥٨}$» إلى «$٢^{٦١}$» أي ٢٨٨ كتريليون ونيف وكنتليونين مرة.

إن الناس لا يعلمون ولا يحسون إلا إلى القوة السابعة عشر من رفع العدد «$٢^{٦١}$» كالصوت والكهربا والضوء وغيرها من الأشعة ولكن الآثار التي تنتجها الدرجات ٤٨ الباقية وما لا يستبعد تأثيرها بعد العدد «$٢^{٦١}$» - مجهولة كلها.

obeikandi.com

(٤١) يفرض بعض العلماء الأحوال الغيبية التي لا نستطيع إدراكها ويتصورها بأنها أثر موجودات متحيزة في فضاء ذي أربعة أبعاد (الفضاء الزائد Hypperespace). وإذ أن إيضاح نظرية الفضاء الزائد بالتفصيل ليس من موضوع هذا الكتاب، فإني أكتفي بذكر فكر إجمالي عنها.

تولدت نظرية الأبعاد من إمكان حل المعادلات من الدرجة الرابعة، على حين كانت النظرية الخاصة بالأبعاد الثلاثة المؤلفة من الخط والسطح والجسم أي الطول والعرض والعمق في العالم الجسماني- تحل حساباتها بالمعادلات من الدرجة الأولى والثانية والثالثة، تصور بعض العلماء وجود بعد رابع في عالم الإمكان الذي لا ندركه. ولكن آينشتين يروج حصول المعادلات من الدرجة الرابعة بإدخالها في الحساب الزماني ولا يرى حاجة إلى تصور بُعد رابع.

وأنا أرى أن هذا الرأي أقرب إلى العقل. ولكن بما أن الأحوال الغيبية مجهولة لنا، فسواء أكانت في البعد الرابع أم البعد المئة أم محرومة من الأبعاد، فلا فرق عندنا. ويكفى التسليم بأنها خارجة عن طاقة إدراكنا الخِلقى.

(٤٢) مثل هذا الاعتراض ما هو إلا سفسطة مبنية على جهل، مخالفة للعقل والمنطق والفلسفة. وليس في قدرة الله ورحمته وحكمته- القرب والبعد والصغر والكبر، فإن الصفة السبحانية محيطة بالكون من أصغر ذرته إلى أكبر الأجرام والأكوان ونافذة فيها. فليس لمن يجهل هذه الحقيقة حق في استقصاء المراد الإلهي فحسب، بل ليس له أن ينبس

ببنت شفة في هذا الأمر. إن الإيمان بما دخلت في الأديان من الخرافات باسم العقيدة- وسنبحث فيها- إنما هو أثر حمق وجهالة. إلا أن المحاولة لتحديد تصرف الله ومراده حسب بحثنا وإدراكنا عمى أكثر منه وضلال.

(٤٣) يُنتج زوج من الذباب العادي خمساً وعشرين مليوناً من الأولاد والأحفاد في العام. وإذا قدِّر عدم موتها فإن ما ينتج في خمسة أعوام يبلغ (١٠^٣٥ × ٣٢) أي يكون مدلول ٣٥ صفراً إلى يمين العدد ٣٢. وإذا قدِّر حجم ذبابة مليمتراً مكعباً (وهو في الحقيقة أكبر منه) فيحدث من تراكم بعض هذا العدد فوق بعضه بلا فاصل- حجم أكبر من الشمس، التي هي أكبر من الكرة الأرضية مليوناً ومائتي ألف مرة.

يضع حي من الأحياء الدورية ثلاثين بيضة مرة واحدة، وينتج سبعين بطناً في العام، فيبلغ مقداراً ما ينتجه في عام (١٠^١٠٢ × ٢٥) أي حاصل ١٠٢ صفراً إلى يمين العدد ٢٥. ولو فرض حجم الحي ميكرونا ($\frac{1}{1,000,000}$ من المتر) مكعباً، فالحجم الناتج من تراكم بعضها فوق بعض بلا فاصل يكون مكعبا في ضلع ما يقرب من ثلاث تريليونات سنة ضوئية. على حين أن قطر المجرة التي تدخلها مجموعة شمسنا ما هو- على قول پوانكاري- إلا نيفاً وتسعة آلاف سنة ضوئية. [ذكرت تقدير پوانكاري للتزويد بفكرة، وإلا فقد رُصِد بأحدث وسائل المساحة كواكب تبعد مسيرة مليون سنة ضوئية].

وتناسل الأحياء المائية والنبات وتكاثرها- على هذه الصورة. ويفهم من هذا أنه إن لم يكن الموت، فتناسل الحيوان والنبات يجعل الحياة مستحيلة، ويبيد ملك الخليقة. فلهذا تقوم الحياة على الموت، وعلى الموت غير الطبيعي. وتجرى وفرة التناسل على نظام خطر في الأحياء الدنيئة والنبات؛ ولهذا تتم الموازنة بكون الصغار طعاماً للكبار.

إنما قُصد بإيراد هذه الأرقام، تزويد أرباب التأمل والبصيرة من القراء الكرام بفكر إجمالي ، ومثال علمي عن عظمة الخليقة وحكمتها البالغة، وعن النكت الدقيقة حول قانون الطبيعة. ويمكن أن يقال «إننا إن سلمنا بكون الإفراط في التناسل إلى حد يفوق تصور كل شخص في بادئ الأمر- يكون سبباً للمقاتلة، فإنه يلزم التسليم بأسباب خفية صحيحة غير مفهومة بعد، وبأسباب لن تفهم التناسل المعاجل السريع».

(تُحل ما ذكرت من الأرقام المحيرة للعقول بالحساب البسيط. وأما إنتاج زوج من الذباب، عشرين مليوناً من الذرية في عام، ووضع الأحياء الدورية ثلاثين بيضة مرة واحدة، وإنتاجها سبعين بطناً في عام- فمن الحقائق التي أظهرها علماء الحيوان بتحقيقاتهم وأبحاثهم الدقيقة).

(٤٤) إن الأشخاص الذين باحثتهم في هذا الموضوع، لم يقدروا على إدراك وقوع الإلهام للناس من الله! ولم لا؟! لا يستطيعون إيضاح ذلك. من يفكر تفكير الإنسان يحس ويصدق وجود ميزات كثيرة للإنسانية، تتفوق بها على سائر المخلوقات. ولا جرم أن تفكير الإنسان في مثل هذه الشئون العلوية دليل كاف على شرف نوع البشر وميزته. فلا معنى للفرض

والتصور بأن الله خلق عباده المختارين ثم تركهم وشأنهم. أيظن منكروا التدخل المعنوي في شئون الناس- عجز العلم والقدرة السبحانية عن الإحاطة بالفروع الكونية؟! أم يستبعدون اختيار حافظ النظام جل شأنه أي نوع من التدبير للمحافظة على نظام العالم؟! أم يفرضون تعطيل مكون الكون فعاليته بعد التكوين؟! إن مثل هذا التفكير لواهٍ. وأذكر هنا بعض حوادث لإيضاح معنى لفظ الإلهام:

ذهبت إلى مَعَان بمأمورية مؤقتة، في أثناء ما كنت في هيئة أركان حربية الجيش العثماني الخامس (جيش سورية)، وكانت قافلتنا تسير حين العودة في ليلة مظلمة عن طريق «كَرك - طفيلة»، على ظهور دواب ضعيفة متعبة، مرخية العنان لهذه الحيوانات النعسانة نحو الجهة المقصودة- على زعمها. واستيقظت فجأة حوالي منتصف الليل، فشرعت في مشاهدة السماء مستعجلاً. ولما لم أعثر على النجم القطبي مع اتجاه طريقنا نحو الشمال، أوقفت القافلة، وفتشت السماء حتى تحققت أن سيرنا كان إلى عكس الجهة المقصودة تماماً! حقا أن دواب القافلة لم تغير وجهتها نصف دائرة مرة واحدة، بل تحولت إلى العكس سائرة في قوس كبيرة بالتدريج، ولكن أين جهة الانحراف؟ أهي المشرق أم المغرب؟ ففي الشرق حتى العراق، وفي الغرب حتى بحر لوط- لا يحتمل وجود بلدة أو جرعة ماء، وربما عسر تمييز الطرق الصحراوية، التي ليس بها ما يعين الاتجاه، بل استحال! وإذا طلعت الشمس فستكون في الصحراء قبورنا من العطش والأوهام! وبينما كان الدليل يفهم هذه الحالة بلغة نصفها عربي

ونصفها تركي- متألماً مرتاعاً- لاحظت شبحاً بالجهة الغربية، وأنا قصير النظر قصراً شديداً، وكاره استعمال النظارات، فأريته للدليل. فأسرع إليه، ولم يمض غير دقيقة حتى بشر بصوته الجهوري، باهتدائنا إلى الطريق. كان الشبح ضريح جعفر الطيار رضي الله عنه، ومنه طريق آخر ذاهب إلى كرك، وكنا انحرفنا عن طريقنا مسيرة ساعة إلى الغرب. فمن أيقظني بجوار هذا الضريح، الذي يكاد يكون أمارة وحيدة في هذه النقطة من الصحراء؟ ومن حفزني على مشاهدة السماء؟ ولو استيقظت بعد ساعة لكانت القافلة كلها طعاماً لوحوش الصحراء وحيواناته!

ومثال واحد لا يكفي لإفحام المعارضين: حدث في الشام أيضاً، أن أصيب واحد من أحب أصدقائي بمرض. ففي ذات ليلة قرر الأطباء عند الصباح انتهاء الأزمة وزوال الخطر، فانسحبت مستريحاً إلى غرفة نومي. وما نمت نصف ساعة حتى رأيت فيما يراه النائم رجلاً، متوسط القامة، عريض المنكبين، محمر الوجه، قصير اللحية، لابساً ثوباً نظيفاً ظريفاً في زي بين العلماء والدراويش، وجيهاً مهيباً محبوباً، وقال لي: «قم فأنقذ صديقك!»، فاستيقظت مرتعشاً وكأني رأيته خارجاً من حجرتي، فأسرعت حافياً إلى غرفة المريض. كان المريض مغمي عليه، ومن حوله يحاولون إسعافه. فما أسرع ما أرسلت كل من بالبيت إلى بيت كل طبيب. ثم اندفعت عارياً مضطرباً كمن به مس من الجن، إلى منزل عثمان باشا رئيس أطباء الجيش، وكان مقابلاً لبيتي. فانتزعت المسكين من سريره، وأخذته إلى المريض، وأمكن تلافي الخطر بسرعة المداواة. لقد أجمع

الأطباء على أن المداواة لو تأخرتِ بضع دقائق لما نجا المريض. فمن كان موقظي ومهيِّجي؟

حادث أهم: عُينت في سنة ١٩١٦ لقيادة الجيش الثاني المرسل نجدة للجيش الثالث، على أن تشمل قيادتي كل الميدان الشرقي. ومنذ أواسط يوليه (تموز) ابتدأت حروب شديدة في جبهة الجيش الثاني، وكان الروس يلقون بقواتهم التي سحبوها من خطوط جيشنا الثالث- بعد أن شتتوا شمله- على الجيش الثاني الذي احتشد ببطء شديد، وأدخِلَت جميع قطعات الجيش الثاني خطوط القتال في بداية أغسطس ماعدا آلاي واحد احتُفظ به احتياطاً خلف ربوة تُدعى «قرابابا داغي». وكان قائد الجناح الأيسر لموقعنا حصل على معلومات دالة على هجوم الروس على موقعه، فأخذ يطالب ملحاً بإلحاق آلاي الاحتياط حالاً بالقوة التي يقودها، وقائد الفرقة يؤيده في طلبه. لم أر هذه الأخبار خليقة بالثقة، ولهذا تلكأت بضعة أيام في إسعاف الطلب. وفي ذات مساء انهالت على أخبار من جهات مختلفة، فوافقت على إرسال الآلاي بكرة الغد. إني بناءً على تنبيه بعض الوقائع التاريخية، أتحاشى في الأدوار المهمة للحرب- مهما بعدت ساحة القتال- خلع أثوابي ليلاً، خشية التأخر في إبلاغ الأخبار. وفي تلك الليلة كذلك نمت ملتحفاً معطفي الثقيل (يا مجي) على مقعد كبير، بجانب المنضدة بخيمة الأعمال. واستيقظت فجأة بحس غريب، فانكببت على الخريطة، وشرعت في بحث الموقف بصفاء ذهن تام. فقر رأيي من جديد على عدم وجود احتمال كثير لوقوع هجوم حقيقي على جناح جيشنا

الأيسر، ولو وقع فلن يكون وخيماً، على حين أن «قرا بابا داغي» مفتاح مواقعنا كلها؛ فأسرعت إلى التليفون، وأمرت قائد الآلاي ألا يتحرك من مكانه. وفي الصباح التالي انهالت الطالبات بسوق الآلاي الاحتياطي إلى نهاية الجناح الأيسر، فعجزت عن مقاومة إصرار المطلعين على الوقائع عن كثب، ورضيت بارتحال الآلاي، لبرقية تلقيتها وقت الغروب. تحرك الآلاي بسرعة بدون النظر إلى الظلام، إلا أنه لم يكد يقطع كيلو مترين حتى اضطر إلى التوقف لالتواء الطريق ووعورة الأرض، انتظارا لطلوع القمر. ولما طلع القمر كان الروس يقومون بهجماتهم الحقيقية على «قرا بابا داغي»، وقد استولوا على مواقعنا المستحكمة، فلم ينقذنا منهم إلا الهجوم المقابل، الذي قام به هذا الآلاي على جنبهم، وهم يحاولون الاستيلاء على الربوة التي كانت نقطة ارتكازنا. فلو ارتحل هذا الآلاى قبله بيوم، لسقط «قرا بابا داغي» وانشق خط قتالنا، وأصيب الجيش- نظراً إلى وعورة الأرض- بهزيمة منكرة، واحتُلت الأناضول، وقطع خط رجعة الجيش الذي كان ببلاد العرب؛ انقلبت الآية ببقائه في موضعه: طرد الروس ومنوا بخسائر فادحة في أثناء تراجعهم، فلم يقدروا على استئناف هجومهم. من الذي أيقظني من النوم ومن الغفلة قبل هذه الموقعة بأربع وعشرين ساعة؟ قد حدث لي مثل هذا الحادث خمس مرات أو عشراً في أثناء حياتي.

ومما يجدر بالذكر عدم تقدير أهمية هذه الحالات حين وقوعها، ولعل هذا هو السبب لنسيان كثير منها. ولكنني واثق من أن كل امرئ اعتاد

التأمل في حياته، وخاصة كل جندي، يصادف بضع حوادث مثلها حين يراجع ماضيه في ذهنه، وأما حملها على اهتزازات ذرات وحجيرات دماغ مضطرب بأفكار المستقبل، أو ما شاكلها، فما هو إلا هذيان، كما أن تشبيهه بالحس قبل الوقوع، لا يحل المشكلة. لأن حقيقة هذا الحس لم يفسر بعد تفسيراً مادياً. فالأحوال المجهولة الماهية كهذه هي أثر من آثار قوى غيبية، وسيالات لطيفة.

إن هذه الحالة الروحية التي تظهر في كل إنسان قليلاً أو كثيراً، إذا سميت ما بلغ منها الكمال وحياً- لم تبعد عن الحقيقة، وإن هذه التلقينات أثر قوي متوسطة تسمى ملائكة بلسان الشرع. وكما أن الله هو السبب الأول لكل أمر ولكل حال من المكونات المادية، التي تظهر باجتماع من قوى وأسباب متوسطة وتالية، فإن مدبر هذه التلقينات كذلك هو الله ذو الجلال.

إني أكرر فأقول لما كانت كيفية الوحي أيضاً من الأسرار السبحانية، فلا يتسع لها علم الإنسان وإدراكه، فلذا لا نكون بهذا التشبيه قد قمنا بإيضاح وجه الوحي وصورته، وكنهه وحقيقته، وإنما أظهرنا تفاهة أقوال المنكرين القائلين باستحالة وبطلانه.

(٤٥) فكرت بعض زوجاته الطاهرات الانتفاع بالثروة والرفاهية التي اكتسبها المسلمون بعد الهجرة، ففاتحت رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك. فأجاب بما معناه: «لا يجتمع حريم النبي ونعيم الدنيا؛ فمن رغبت في النعيم لتتركني».

(٤٦) أنقل الكلمة الآتية عن مباحث القرآن في دائرة المعارف البريطانية لمناسبتها للموضوع: «والحق أن محمداً اجتهد في الله، وفي نجاة أمته وبالأصح اجتهد في سبيل الإنسانية جمعاء، ولم يفقد قط إيمانه بصحة واجبه المقدس».

ذُكرت التعاليم مختصرة في الفصل الثالث من كتاب «الإسلام»، للأستاذ إدور مونتن، ثم قيل: «نشأ من هذه الإصلاحات ما لا يحصر له من الترقيات. فخليق بمحمد أن يعد من أكبر المنعمين على الإنسانية والعاملين على خيرها».

فليقارن هذه التقديرات العادلة التي أبداها علماء أغراب من النصارى المنكرين للإسلام في حق نبينا، بالآراء السخيفة، والأقوال الواقحة الظالمة، التي يتفوه بها بعض الجهال المدعين العلم من المولودين في الدين الإسلامي، فاعتبروا يا أولى الألباب!

(٤٧) أسند سنت پول صفة البنوة إلى عيسى عليه السلام بعد الرفع بنحو عشرين عاماً. وتتبين عقيدة الإسلام في عيسى بالآية الكريمة الآتية: «يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيراً لكم، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض، وكفى بالله وكيلاً» سورة النساء الآية ١٦٧.

كانت عقيدة مذهب التوحيد الذي دعاء إليه «آرمان» في أوائل القرن الثالث الميلادي، متفقة في الجملة مع الآية الكريمة التي نزلت بعدها بثلاثة قرون أو أربعة. ورد مجلس رهبان (قونسيل) مدينة أزنيق هذا المذهب، بالرغم من تأييد إمبراطور روما الشرقية وكثير من الملوك له. ومع ذلك ظلت هذه العقيدة سائدة زماناً طويلاً، وكان دخول أهالي البوسنة وألبانيا بسهولة في الإسلام من اعتناقهم لهذا المذهب سابقاً.

(٤٨) كان تأليه العظماء عادة شائعة في زمن الجاهلية فبوذا (اسمه الأصلي غوتانا) الذي ظهر قبل المسيح بستة قرون، كان ابن أحد الأمراء المشهورين بالهند، وتأثر بما شاهد من مناظر الرقة والمكسنة في أثناء تنزهه، فهجر داره وزوجه وابنه المولود حديثاً، مؤثراً الغربة والاعتكاف وهو في التاسعة والعشرين من عمره، ثم شرع بعد مدة من الزمن في إرشاد الناس ومعه خمسة من رفقائه. ولقبه معاصروه في حياته بلقب «بوذا» أي النبي. وكان بالهند عقيدة تقول بظهور رجل ممتاز حيناً بعد حين يدعى بوذا لتلقين البشر الحكم الإلهية. ولكن لما مات هذا الرجل العظيم المخلص في أثناء حياته، اختلق خلفاؤه أنواعاً من الأساطير في شأنه، وأدخلوه ضمن الآلهة التي لم يكن يسلم بها.

ومنذ نيف وثلاثة قرون قبل المسيح اغتر إسكندر ذو القرنين بانتصاراته الحربية، فادعى بأنه ابن زيوس، وأنبأ كهنة مصر بأنه ابن «آمون راع» مسندين ذلك إلى وحي «آمون».

وادعى قيصر (شزار) دكتاتور روما الشهير قبل نصف قرن من الميلاد أن اسرة «يوليوس» التي ينتمي إليها من أولاد الزهرة (ڤنوس). وأله الرومان الإمبراطور أوغست (أوكتاف) بعد موته قبل رفع عيسى بقليل (Apsthestiser). ومن قبل ذلك ادعى نمروذ والفراعنة الانتماء إلى الألوهية، كما مال أباطرة روما إلى هذا الوهم. حتى إن الحكام في أوروبا كانوا إلى زمن قريب، يعدون أنفسهم مفوضين من الله.

كانت عقيدة التثليث موجودة بالهند من قديم الزمان، وخاصة في مذهب براهما. ومنذ ثلاثة قرون قبل المسيح روج بطلميوس الول مذهب التثليث المؤلف من أوزريس (الأب) وإيزيس (الأم) وهوروس (الابن) بالإسكندرية. وقد قصد بذلك استمالة المصريين الذين جلس على عرش بلادهم، بالتأليف بين عقائدهم وبين عقائد المقدونيين.

تدل هذه الأنباء على ميل الأفكار العامة في عصر عيسى عليه السلام إلى تأليه الأعاظم وتثليث الأقانيم، على حين تنحصر عقيدة التوحيد في شعب صغير ضعيف.

(٤٩) ورد في كتاب مترجم إلى التركية من تأليف المستشرق الدكتور دوزي المعروف بعدائه للإسلام «أن حالة الاستغراق التي شوهدت عند النبي، كانت ناشئة من مرض يطلق عليه الهستريا العضلية، وأن نوبات هذا المرض تجلو الذهن جلاءً خارقاً للعادة». وأسند رأيه هذا إلى تشخيص الحكيم الألماني الشهير شبرنجر (Springer).

إن تشخيص مرض رجل بعد موته بثلاثة عشر قرناً خليق بأن يعد من عجائب العصر. ومع ذلك إن مرضاً لا يضر بصحة المريض وبدنه، على حين يُخرج للناس في أثناء نوباته وهذيانه كتاباً يجمع شمل قوم في الدرك الأسفل من الجهل، ويمدنهم ويكون منهم أمة ودولة عظيمة، ويحدث في العالم طراً انقلاباً خيراً نافعاً، ويفحم أدباء العالم وشعراءه، ويدعهم حيارى مبهوتين- إن مثل هذا المرض ليُقبل بالترحاب بكلمة عُقبى لنا. فيا ترى، كم مريضاً فحص عنه هذا الحكيم ممن ابتلوا بهذا المرض، فأتوا بمثل هذه الخوارق!؟ فلو اتخذ منهم مصلاً وطعم به زعماء الأمم وحكامها، ألم يكن قد قام بخير خدمة للإنسانية؟

(٥٠) يصور الأوروبيون عقيدتنا في اللوح المحفوظ في صورة مادية جداً، فيقولون إننا نعتقد بأنه مزين بالأحجار الكريمة. والأمر ليس كذلك؛ فإن اللوح المحفوظ، لم يرد ذكره في القرآن الكريم إلا مرة واحدة في الآية الكريمة: «بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ».

(٥١) لتنوير هذه المسائل أنقل من رسالة الزوراء والحوراء لجلال الدين الدوابي [ترجمها شيخ الإسلام موسى كاظم إلى التركية بحواش وتعليقات قيمة] -التشبيه الآتي: «إذا أخذت امتداداً مختلف الأجزاء في اللون كخشبة أو خيط اختلف اللون في أجزائه ثم أمررته في محاذاة ذرة أو غيرها مما يضيق حدقته عن الإحاطة بجميع ذلك الامتداد، أليس تلك الألوان المختلفة متعاقبة في الحضور لديها لضيق حدقتها، ومتساوية في الحضور لديك لقوة إحاطتك؟» وإذا وُسِّع هذا التشبيه توسيعاً غير متناه؛

أي إذا اعتبر الفرق بين قدرتي المخلوقين غير متناه بالنسبة لله سبحانه وتعالى، فيستدل على كون أحوال العالم وشئونه- المنظومة الكونية الخليطة من الفضاء والزمان بناء على نظرية النسبية- محاطة دائماً بالعلم الإلهي، ومشمولة بنظره.

إنه وإن كان الإنسان لا يقدر على الإحاطة بهذه الحالة وتصورها برغم هذا الاستدلال وهذا أمر طبيعي، إلا أنه لا شك في أن الفاني لا يدرك السرمدية، ولا يدرك المخلوق سر الخلقة وعلم الخالق.

(٥٢) استصوبت ترجمة البيانات الآتية من كتاب «محاورة جوته مع أكرمان» لاحتوائها على نكت متصلة ببحثنا. قال جوته: «لفهم ارتباط الأديان بعضها ببعض يجب عليكم الاشتغال أربعين عاماً بدرس تاريخ الأديان والبحث فيها كما فعلت. إن ما يبدأ المحمديون بتعليمه في تربيتهم الفكرية خليق بالانتباه. فهم يثبتون في أذهان شبابهم عقيدة أنه لن يصيبهم أمر لم يقدره الله الذي يدبر الأمور بإرادته، وهذا أساس دينهم منذ الأزل؛ فلهذا يقاومون في كل حياتهم مستريحين. لا أريد التكلم في صواب هذه العقيدة أو خطئها، ولا في فائدتها أو ضررها. غير أن لها أثراً فينا أيضا بدون تعليمنا إياها، فكل جندي ذاهب إلى حرب يقول: «لن تصيبني طلقة لم يُكتب عليها اسمي»؛ فكيف كان يستطيع هذا الرجل المحافظة على رباطة جأشه ومهارته بإزاء المخاطر الهائلة بدون هذه العقيدة؟ أفلا تكون عقيدة النصرانية «لن يسقط فرخ عصفور من سطح دون مشيئة أبيكم - الله» مترشحة من المنبع نفسه، ومتضمنة تصديق

حكمة بالغة، وهي عدم حدوث أمر دون إذن من يعرف الأمور كلها ومشيئته؟»

(٥٣) فأنقل هنا تبركاً بعض آيات كريمة، وأحاديث شريفة، متعلقة بالعقائد والأحكام والأخلاق الإسلامية، وهي: «الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون» سورة البقرة. و «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً. ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون. ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط، لا نكلف نفساً إلا وسعها. وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى، وبعهد الله أوفوا، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون. وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوه السبل فتفرق بكم عن سبيله. ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون». [سورة الأنعام. والأوامر الإلهية التي في هذه الآيات الثلاث، هي لب الوصايا التي في التوراة]. و«من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها». و «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم». و«ولا تُطيعوا أمر المسرفين، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون». و«وشاورهم في الأمر». و«يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة». «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا». و «إن الله يأمر بالعدل والإحسان

وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون». و «اعدلوا هو أقرب للتقوى». و «لن تناولوا البر حتى تنفقوا مما تحبون». و «للمتقين الذي ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين». و «وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين». و «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين». و «ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم». و «اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً». و«تعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان». و«اصبر على ما أصابك، إن ذلك من عزم الأمور». و«وأن ليس للإنسان إلا ما سعى».

والأحاديث الشريفة

«أشرف الإيمان أن تحب لله، وتبغض لله، وتعمل لسانك في ذكر الله عز وجل، وأن تحب للناس ما تحب لنفسك، وتكره لهم ما تكره لنفسك؛ وأشرف الإسلام أن يسلم الناس من لسانك ويدك». و «لا يستكمل العبد الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. وحتى يخاف الله في مزاجه وجده». و«إن الرجل لا يكون مؤمناً حتى يكون قلبه مع لسانه سواء، ويكون لسانه مع قلبه سواء، ولا يخالف قوله عمله، ويأمن جارُه بوائقه». و «يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم لله، فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص». و «الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه». و«يا أيها الناس اتقوا الله، فوالله لا يظلم مؤمن مؤمناً إلا انتقم الله منه يوم القيامة».

obeikandi.com

و«اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً، فإنه ليس دونها حجاب». و«رأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس، واصطناع الخير إلى كل بر وفاجر». و«إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث؛ ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً». و «حسن الظن من حسن العبادة». و«إن حقاً على المؤمنين أن يتوجع بعضهم لبعض، كما يألم الجسد للرأس». و«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». و«فعليكم بالجماعة». و«الدال على الخير كفاعله، والدال على الشر كفاعله». و«أحب الجهاد إلى الله كلمة حق تقال لإمام جائر». و«العفو أحق ما يعمل به». و «ومن عفا عند المقدرة عفا الله عنه يوم المعسرة». و«أبغض الرجال إلى الله تعالى الألد الخصم». و«العفو لا يزيد العبد إلا عزاً، فاعفوا يعزكم الله؛ والتواضع لا يزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا يرفعكم الله». و«البر ما يطمئن إليه القلب وإن أفتوك وإن أفتوك». و«البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس». و«تمام البر أن تعمل في السر عمل العلانية». و«حسن الخلق خلق الله الأعظم». و«إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم ببسط الوجه والخلق الحسن». و«أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً». و«ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا». و«الحياء من الإيمان». و«الحياء والإيمان قرنا جميعاً. فإذا رُفع أحدهما رُفع الآخر». و«الحياء خير كله». و«الحياء لا يأتي إلا بخير». و«خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل

وسوء الخلق». و«ما مُحق إسلام محق الشح بشيء». و«ما عال من اقتصد».

(٥٤) هناك من يعترض على بساطة المعتقدات الإسلامية، بالقياس إلى تعليم سائر الأديان، ولكني أظن أن الحقيقة في البساطة.

(٥٥) لا أدري هل يسلِّم التاريخ الحديث- المستند إلى الحفريات والتحقيقات والتجارب- بالتاريخ المقدس برمته، فيتجشم مشقة البحث عن أنبياء بني إسرائيل، الذين لم يكونوا ملوكاً؟ ثم هل إثبات أن أولئك الأنبياء كانوا مبعوثين من الله، وأن رسالتهم حق لا ريب فيه- مسألة من المسائل التاريخية؟!

(٥٦) أنقل هنا أسطراً عن مبحث فلسفة القرآن، من كتاب حضارة العرب لُجستاف لوبون، قال: «إن رجعنا إلى تعاليم القرآن الأساسية، نجد الإسلام صورة مهذبة للنصرانية؛ ومع ذلك فهو يفترق عن النصرانية في عدة مسائل، وخاصة في نقطة أساسية؛ وهي التوحيد المطلق. فإن إله الإسلام الواحد يحلق متعالياً فوق كل شيء منزهاً عن الإحاطة، وعن صحبة الملائكة والأولياء، ومن تراهم الأديان الأخرى من الأشخاص الخليقين بعبادتهم. فللإسلام الحق في أن يدعي بأنه أول دين نشر التوحيد الخالص المطلق في العالم كله. (بيد أن القرآن قد استغنى عن هذا الشرف، وعرفنا بأن الأديان الحقة التي تقدمته، كانت أيضاً تدعو إلى التوحيد).

«إن بساطة الإسلام العظيمة ناجمة عن هذا التوحيد الخالص، وسر قوته مندمج في هذه البساطة، فالإسلام يُفهَم بلا عناء، ولا يعرض على معتنقيه أسراراً متناقضة مع العقل السليم، كسائر الأديان. وليس للإسلام إلا إله واحد معبود، يتساوى عند الناس جميعاً. وله تعاليم وأحكام بسيطة واجبة الرعاية، إن روعيت واتبعت فجزاؤها الجنة، وإن أنكرت وأهملت، فعقابها النار. فليس في الإمكان أن تكون عقيدة أبسط منها، وأبعد عن التناقض. كل مسلم يعلم ما يؤمن به مهما كانت طبقته التي ينتمي إليها، ويعرف عقيدته بعدة كلمات بلا مشقة، في حين أنه يجب على كل نصراني أن يكون متكلماً، واقفاً على دقائق علم الجدل، أي أن يكون عالماً دينياً، حتى يستطيع البحث في التثليث والاستحالة (القربان المقدس، تحول الخبز والخمر إلى دم عيسى) وغيرها من الأسرار.

«لا شك في أن امتزاج هذا الوضوح، وهذه الصراحة، والشعور بالعدل والرحمة اللذين يعلمهما- كان له أثر كبير في سرعة انتشار هذا الدين في الدنيا. إن عدم تنصر أي قوم مسلمين، سواء انتصروا أو انهزموا، مع أن أقواماً لم تكد تبلغهم الدعوة الإسلامية حتى اعتنقوها، كالمصريين الذين ظلوا أمداً طويلاً تابعين للقسطنطينية- يستتر سببه في تلك الأوصاف التي وُصف بها الإسلام».

«لأجل الحكم بنفع كتاب ديني وفائدته ينبغي ألا ينظر إلى ما فيه من المباحث الفلسفية الضعيفة عامة- أي في كل الأديان- بل يجب أن يُتخذ الأساس والدليل من التأثير الذي تحدثه تعاليمه. وإذا بُحث من نقطة النظر

obeikandi.com

هذه، فالإسلام يعد أهم الأديان المسيطرة على الأرواح. إنه لا يلقن أتباعه أموراً جديدة غير ما ورد في أحكام سائر الأديان، من الشفقة والعدالة والعبادة، ولكنه يعلم هذه الأمور بطريقة بسيطة، صالحة لفهم كل الناس، ويلقن الروح إيماناً كاملاً، لا يدع مجالا للشك.

«كان تأثير هذا الدين المادي والسياسي جد عظيم في العالم. فقد كانت جزيرة العرب قبل محمد بلاداً وبوادي مستقلة، منفصلاً بعضها عن بعض، تسكنها قبائل وعشائر يتقاتل بعضها مع بعض قتالاً مستمراً، حتى إذا مضى قرن على البعثة، امتدت الدولة العربية من الهند إلى أسبانيا، وأضاء نور المدنية كافة البلاد والأمصار التي يخفق فيها اللواء المحمدي. وكان سبب هذا ملاءمة الإسلام للمكتشفات العلمية، ومسايرته لها، وتلقينه الناس حسن الخلق والشفقة والعدل والسماح.

«أما من نقطة النظر الفلسفي، فعقيدة «بوذا» أسمى بكثير من عقائد الأديان السماوية. ولكن مسّت حاجة إلى تبديل فلسفته تبديلاً تاماً، لكي تكون صالحة لإدراك العامة. وأما في شكلها الحالي المبدل، فمن الواضح أنها دون الإسلام بكثير. (العقيدة البوذية هي فلسفة وحدة الوجود. لقد وازناها سابقاً بالفلسفة الإلهية وناقشناها. ولكن هل تتصور الحقيقة والقيمة لفلسفة بُدِّلت مبادئها، لكي تكون نافعة وممكنة التطبيق؟!)».

«والحضارة التي وضعها تلاميذ محمد (صلى الله عليه وسلم) اقترنت بعواقب كل مدنية سبقتها، وهي: الظهور، والتقدم، والرقي، والكمال، ثم

الزوال. لقد قلبت الحضارة الإسلامية ما سبقها من الحضارات إلى غُبار، ثم أدركتها العاقبة نفسها. بيد أن الزمان لم يقدر على إفناء تعاليم الرسول، بل وقاها وقواها، حتى عادت أكثر حيوية ونشاطاً من كل وقت مضى. فالقوانين المحمدية لا تزال محتفظة بكل قواها، بينما الأديان القديمة مستمرة في فقد حكمها وتأثيرها في الأرواح يوماً بعد يوم».

(٥٧) ذكر القرآن الكريم الأديان السامية مرات كثيرة، على حين لم يذكر شيئاً عن مراسم «براهما» و «بوذا» و «زَرَدُشت» وغيرهم، ممن تُعتقد أديانهم في الشرق. وحاول بعض المعارضين حمل هذا على جهل الرسول بتلك الأديان، والاستدلال به على أن القرآن لم ينزل من الله، وأن الإسلام ليس ديناً عالمياً. بيد أن القرآن قد بين أولاً أن الإسلام يوافق أسس ملة إبراهيم عليه السلام، فليس في وجود مباحث مقتبسة من التوراة والزبور في متن القرآن- ما يناقض المنطق. وثانياً: إن كان يستفاد من تحقيقات بعض العلماء احتواء العقائد الشرقية على آراء فلسفية عميقة، فإنه من الواضح كذلك أن تلك المراسم ليست سوى الوثنية، إذا نُظر إليها من الوجهة الدينية. وقد مُنِعت الوثنية في القرآن منعاً باتاً، ولم تذكر فيه المراسم الوثنية، التي كانت ببلاد العرب نفسها، بل التي كانت بمكة أيضاً، حتى يستغرب من عدم ذكر المراسم الوثنية البعيدة عنها كل البعد!

من الغريب أنه قد ادعى بعض المعارضين في زمن الرسول أنه تلقى القرآن من أسيرين أحدهما نصراني، والآخر إيراني. على حين أن ظهور كتاب عربي أعجز شعراء العرب عامة، من أسيرين أعجميين مستحيل

obeikandi.com

تماماً. والآن يُذكر عدم علم ذلك الأسير ناظم القرآن- حاشا لله- بما كان ينبغي له أن يكون معتقداً وواقفاً عليه من العقائد الشرقية، وعن عدم اطلاع محمد صلى الله عليه وسلم عليها بالتبع. هكذا تتناقض الإسنادات والافتراءات المغرضة، وتنبو عن المنطق!

(٥٨) ومسألة خلود العذاب الإلهي أو عدم خلوده على الإطلاق مختلف فيها بين أكابر الأمة. فقد ذهب الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي إلى أن أهل النار يعذبون فيها مدة من الزمن، ثم ينجون من العذاب، منقلبين إلى الطبيعة النارية. وبناء على قول ابن عمر وابن مسعود وأبي هريرة رضي الله عنهم، أن الله يرفع العذاب بإفناء نار جهنم. وهاك موجز الأدلة المسرودة في هذا الشأن:

فأولاً: نظراً إلى مضامين الآيات القرآنية المتعددة، أن الغاية من الخلق والأمر هي الرحمة، والرحمة الإلهية أوسع من كل شيء، وأسبق على الغضب الإلهي؛ ولو كان العذاب أبدياً لكان منافياً للرحمة، وهي الأصل في الخلقة. وبما أن العذاب قد خُلق لغاية محمودة، كزجر النفوس، فلا تبقى حكمةٌ في إدامته بعد أن تتم تلك الغاية. والأفعال الإلهية لا تكون منافية للحكمة.

وثانياً: قُيد العذاب في آيات كثيرة بالمشيئة الإلهية. والمشيئة السبحانية مقترنة بالحكمة والرحمة بالطبع، والآية «لابثين فيها أحقاباً» مؤيدة لهذا الرأي، أي أنها تدل على حصر العذاب في مدة معينة؛ وليست الآيات الكريمة خاصة بالموحدين. وفي القرآن آيات كثيرة تبين الخلود في النار،

بيد أنه ليست فيه آية واحدة تتضمن خلود النار نفسها. ومعنى الخلود المكثُ المديد، ولا يفيد الأبدية. وبالعكس من ذلك آيات كثيرة تنبئ عن نعيم الجنة، وتصفها بصفات الخلود والأبدية، نحو قوله: «عطاء غير مجذوذ»، وقوله: «إنَّ هذا لرزقنا ما له من نفاد»، وقوله: «لهم أجر غير ممنون» (غير مقطوع)، وقوله: «خالدين فيها أبداً»، وغيرها. وبما أن النعمة مقتضى الرحمة، فينبغي أن تكون غائية وأبدية.

وثالثاً: لقد ورد في القرآن مرات أن الله لا يخلف وعده، وليست به إشارة واحدة دالة على عدم خُلفه في وعيده. والرجوع عن الوعيد كرم، والله أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين.

تلكم هي آراء عظماء الأمة المحمدية في العذاب.

(٥٩) الأحكام الأساسية للعهد الذي عهده النبي صلى الله عليه وسلم إلى رُهبان دير القديسة كترينا بطور سينا، ونصارى تلك الجهات عامة [من كتاب «روح الإسلام» لأمير على الهندي]: لا تُفرض على النصارى جزية منافية للعدالة، ولا يخرج قَس من كنيسة يقوم بخدمتها، ولا يكره نصراني على تغيير دينه، ولا يخرج راهب من صومعته، ولا يمنع عن طريق حجه، ولا تهدم كنيسة ليقام جامع أو بيت للمسلمين مكانها. وللنصرانية المتزوجة من مسلم أن تبقى على دينها، دون تعرض للاضطهاد من أجل دينها، وإذا احتاج النصارى إلى العون على إصلاح كنائسهم أو صوامعهم، أو في شأن من سائر شؤونهم الدينية، فيعاونهم المسلمون، ولا يعد عملهم هذا مشاركة معهم في النصرانية. وإذا حارب

Obeikandl.com

المسلمون سائر النصارى، فلا تتعرض النصارى الباقون بين القوتين المتقاتلتين، للاضطهاد والمسئولية. ومن خالف هذا العهد من المسلمين عُد خارجاً على أمر الرسول.

وصايا أبو بكر الصديق العشر لقواد جيشه: لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.

فاعتبروا يا أولي الألباب!

(٦٠) مقتبس من كتاب ما هو القرآن (قرآن نه در) لعمر رضا بك.

(٦١) وقع نظري في الأيام الأخيرة على كتاب مخطوط خليق بأن يسمى خزانة الحكم، لما يحوي من الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، وأقوال العظماء؛ فاتضح لي- على ما فهمت منه- أن الدين للروح، والعلم للعقل. وإذ أن العقائد الدينية لا يتيسر إثباتها عقلاً وعلماً، فلابد من إقرارها عيناً بلا تفسير ولا تأويل، وبلا مناقشة ولا استدلال. وإن الاستدلال في الدين لم يكن معروفاً في صدر الإسلام، وإنما اخترعه علماء الكلام فيما بعد، وإن المنازعات الدينية والعلمية التي نشأت عن هذه السبيل، أحدثت تفرقة وأضراراً عظيمة في الإسلام. ولكن الحديث الذي ذكره المؤلف مرات، وهو «دين المرء عقله، ومن لا عقل له لا دين

له» يثبت علاقة جد قويمة بين الدين وبين العقل، كما أن قوله تعالى «لا إكراه في الدين» وغيره من الآيات الآمرة بالتذكر والتفكر والتعقل- يستلزم وجوب الاستدلال العقلي.

إن الدفاع عن الدين بإزاء اعتراضات الملحدين، وتعريضاتهم الموجهة باسم العقل والعلم- واجب على كل امرئ ديّن مثقف؛ فإن المدافع عن فكرة بالأدلة والأقيسة العقلية، يغلب من يحاول إكراه غيره على التسليم بمبدئه بلا حجة؛ لأن الإنسان محب للحرية فطرة، وراغب فيها، ونافرٌ من الجبر والإكراه، ومتألم منهما، فلذا ترك آباء النصرانية الذين كانوا فيما مضى يدعون إلى التسليم بالعقائد الدينية بلا استدلال- قانون الـ «كريدو» (Credo)، وشرعوا في محاولة إثبات أن عقائدهم غير متناقضة مع العلم والفن، وإن القائلين بمخالفة الدين للعلم- إنما يقولون ذلك لجهلهم الأحكام والعقائد الدينية (الأب مورو «حدود الدين والعلم» جـ ١ الفصل الأول).

التزم مؤلف الكتاب المذكور مذهبي المجسمة والمشبهة، فسلّم بعدم إمكان تفسير المعاني الاشتقاقية والظاهرية لألفاظ القرآن والأحاديث، ثم تصور من الآية: «ثم استوى على العرش» وأمثالها- جلوسه سبحانه وتعالى على عرشه متكئاً، ومن «يد الله» وصفات السميع والبصير كونه ذا أعضاء وجوارح مثل الأعضاء البشرية، وتصور من الآيات المبينة ليوم الجزاء، وهيبة جمال الله وجلاله، أنه جالس بين صفوف من الملائكة، كما

يجلس الملوك بين رجال حواشيهم في مراسم استقبالهم لرعاياهم، حاشَ لله! ثم قال تلكم حالات منافية للعقل، ولا تقبل إلا بدون تفكر وتعقل.

بيد أن اشتقاق كلمة «استوى» بمعنى الاستعلاء، كما يراه علماء أهل السنة، أو بمعنى الاستيلاء، على قول آخر، أقرب إلى الذهن من معنى جلوسه متكئاً على كل حال. ويجوز عد مثل هذه الكلمات القرآنية من الآيات التي لم تبلغ فهم حقيقتها بعد، كما كانت الآية: «وكل في فلك يسبحون» غير مدركة بحقها منذ أربعة قرون أو خمسة، واستعمال كلمة اليد مجازاً بمعنى القدرة والنفوذ والتدخل- من البديهيات البعيدة عن الاعتراض في جميع لغات الأمم المتمدينة. ولا يفهم من كونه تعالى سميعاً بصيراً (أي من قدرة السمع والبصر)، أن له عينين وأذنين مثلنا!

إن لغة مهما كانت غنية لا يمكن أن تستغني عن الحاجة إلى المجاز والاستعارة، ومحاولة سلب أية لغة إياهما، معناه تضييقها معنى، وتنزيل مكانتها إلى درجة التوحش والبدائية؛ فهل يقبله أصحاب العربية الأصليون؟!

(٦٢) يرى بعض الفلاسفة والحكماء، وفيهم المحققون كسپنسر وجُستاف لوبون: «إن الديانة التي بدأت أولاً بالمبالغة في مناقب الجد الأول، أو رؤساء القبائل الخالية، انتقلت متزايدة إلى الخلف. ومن مبالغة هؤلاء في تعظيمهم له، أو توهمهم بقوة خفية فيما وراء كل شيء، وخوفهم منها، ظهرت في صورة التعبد، أي في صورة الوثنية، دفعاً

لأضرار تلك القوة الموهومة، ثم انجرت إلى التثليث ثم التوحيد، متطورة تطوراً تدريجياً».

أظن أن هذا الرأي نشأ، لا من التحقيق في المسألة من مبدئها، بل من وسطها، أي من الزمن الذي عُلمت فيه الأساطير المصرية واليونانية وغيرها، أو استدلالاً بعقائد القبائل المتوحشة الموجودة حتى اليوم. إذ قد ثبت بعد التحقيقات الأخيرة، أن عقيدة الهند القديمة، والشكل الأول للزردشتية، وعقيدة الكلدانيين، وحتى العقيدة السرية التي كانت تلقن في المعابد المصرية- كانت مستندة إلى اساس التوحيد، أو وحدة الوجود.

وإذ أننا نعترف بأن البشرية تصورت من العدم جداً أول، وألهته وقدست من جاءوا بعده، بما أسندت إليهم من أوصاف فوق الطبيعة، بما يقرب من أوصاف الأول، وتصورت قوى خفية وأسراراً للخليقة ثم عبدتها، ونحمل هذا الفكر على سوق طبيعي؛ فبناء على اجتهادي أن تصور هذا الأمر بصورة أبسط، أي بتصوره أنه بدأ بتصور خالق واحد، أو مسبب أول، بدل تلك الصور الأسطورية المهوشة، وأن هذه البساطة الأصلية قد اختلطت بما لقنها الكهنة فيما بعد- يكون أكثر ملاءمة للعقل؛ وهذا الفرض يوافق النقل أيضاً. ولما كان سنوح عقيدة أولية كهذه لفرد ممتاز، وذيوعها وشمولها بواسطته- أقرب للعقل من سنوحها لجماعة برمتها، تتحقق مسالة النبوة كذلك، إذن فتأثير التطور في الفكر البشري وذكائه يتجلى في درجة صحة التفسيرات والإيضاحات والعلاوات التي قام بها أخيراً الكهنة والرهبان والمفكرون والمفسرون وإصابتها.

(٦٣) بين خدمة العلم والفلسفة كثير من حكماء اليهود، وإنما استعملت تعبير عالم النصرانية باعتبار الوطن.

(٦٤) انظر المعلومات الواردة في الباب الأول عن الذرات والأتومات، وهي مقبولة لكونها طبيعية علمية. بيد أنا إذا فكرنا منصفين، فأية معجزة تحير العقل أكثر من هذا الأثر البدائي للخليقة؟

(٦٥) وفي جملتها ما يقوم به بعض أهل الذكر من كشف القبور، أي ما يُروى من اتصالهم بالموتى. وليس لي علم بنبأ مؤيد لهذا في القرآن، ولا في الحديث، كما أني ليست لي تجربة خاصة في هذا الأمر، لعدم انتمائي لطريقة من الطرق الصوفية، ولعدم ممارستي مناجاة الأرواح (Spiritisme)، فلذا لا أعد هذه الرواية سوى قضية محتملة للصدق والكذب. وأما المثقفون منا فيرونها عديمة الإمكان، إلى حدّ أنهم لا يكتفون بتكذيب رُواتها بلا تردد فحسب، بل ينكرون الدين كذلك، لكون أولئك الرواة من أهله؛ على حين أن علامة كآراجو (Arago) لا يراها غير ممكنة. وأما كميل فلا ماريون الذي بذل خمسين عاماً من عمره في البحث في هذه السبيل، فيقول بعد أبحاث وتحقيقات كثيرة: إن الروح الإنساني يقوم بتجليات بعد الموت. وأما السير ويليام كروكس الشهير بمكتشفات واختراعات علمية، فأعلن رأيه قائلا: «لا أقول إن هذه الكيفية ممكنة فحسب، وإنما أقول إنها واقعة». وقال السير أوليڤرلوج الذي عُرف بمكتشفات ومخترعات في الكهربة والإيوان: «إني- بنية الخدمة- أتمنى متحملاً ما أتعرض له من الاستهزاء والتهكم- تسلية الأرواح الحزينة،

بالتكفل لها بإمكان الاتصال بالموتى». وبينما هذه التصديقات تعتمد على تحقيقات وتجارب علماء قد اشتهروا في العالم بكفاياتهم العلمية، فليس للمنكرين دليل يردون به عليهم سوى ابتسامة مستهزئة!

(٦٦) رُوي أنه وجد في الهند تمثال عليه هذا النقش «أنشئ في عام شق القمر»، واستدل بهذا على مشاهدة حادث شق القمر في الهند كذلك. بيد أن هذه الرواية لم يمكن تحقيقها.

(٦٧) ليس الانشقاق انقسام الشيء إلى قسمين أو تقطعه أقساماً. فقد يشق قلم وينشق بدون أن تزول منه قطعة؛ فيجوز إطلاق الانشقاق على انفجار البراكين وفورانها بشق قشورها.

(٦٨) ومع ذلك يظهر أحياناً شذوذ في بعض قوانين الطبيعة، ولم يوصل إلى كشفها حتى الآن، فلذا تُظن مخالفتها للقاعدة الكلية؛ فانبساط الجسم بالحرارة وانقباضه بالبرودة قاعدة كلية، غير أن الماء ينبسط ابتداء من أربع درجات فوق الصفر، وكلما تقدم نحو الصفر والناقص زاد انبساطاً. وهذا الشذوذ نعمة سبحانية لوقاية حياة الأسماك في بحيرات البلاد الباردة وأنهارها، ولوقاية أحياء البحار المتجمدة من الهجرة شتاء. ومن هذا القبيل شذوذ الخلقة الذي يبدو في التولدات. والواقع أن العلماء يحاولون تأويل هذه الأمور وتوجيهها، ولكن هذه التوجيهات ليست ثابتة ثبوتاً كافياً؛ فلا مانع إذن من عد المعجزات شذوذاً كذلك.

(٦٩) ألخص هنا قصة رأيتها في كتاب «أوراني» لكميل فلاماريون، لتعلقها بهذا البحث: كان المستر روبر بروس- وهو من أشهر أسرة اسكتلندية- رباناً ثانياً لسفينة يجول بها حول جزيرة الأرض الجديدة (Terre Neuve)، ورأى يوماً رجلاً لا يعرفه بجانب منضدة الربان الأول يشتغل بالكتابة، فأسرع إلى الربان وأخبره بذلك. ولما قدما إلى الحجرة ما وجدا بها أحداً، ولكن رأيا على لوح الأرادواز هذه العبارة: «أديروا الدفة إلى الشمال الغربي». فأسرعا بتفتيش كل أطراف السفينة، واستجوبا جميع العمال والنوتية الموجودين بها، واستكتباهم، فلم يعلم أحد منهم بما حدث، كما لم يشبه خط أحد منهم الخط الذي على اللوح الأردوازي، فلم يبق لهما إلا توجيه السفينة إلى الجهة التي أوصت بها الكتابة، مهما كان الأمر. فما سارت سفينتهم مسيرة ثلاث ساعات حتى لقيت سفينة اصطدمت بجبل آيسبرج الثلجي، فعجزت عن السير، ونقلوا من بها إلى السفينة السليمة. وفي أثناء ذلك شبه المستر بروس رجلاً منهم بالرجل الذي شاهده في حجرة الربان، واستكتبه على الأردواز نفس الكتابة التي كانت به. فإذا خط الكتابة الثانية هو خط الكتابة الأولى بعينه. ولما سئل رُبان السفينة المصابة عن ذلك الرجل قال: إنه اشتكى قبيل الظهر- أي ساعة مشاهدة المستر بروس إياه- من التعب، واستغرق في النوم، حتى إذا استيقظ أخبرنا «بأننا سوف ننقذ هذا المساء، لأني رأيت في منامي سفينة آتية لنجدتنا»، وأن السفينة التي عرفها شبيهة بسفينة المستر بروس.

على أي شيء تحمل هذه الحال؟ لقد قام فلاماريون باستقصاء هذه الحال وأمثالها أربعين عاماً أو خمسين، ورُويت له في ألوف الرسائل التي تلقاها من جهات مختلفة حكايات محيرة للعقل. وثمة مئات من الرسائل تلقاها من مشاهير الرجال والنساء، ومن القواد والرهبان والحكماء والعلماء والأطباء والأدباء، واستوثق منها، ثم نشرها في بعض مؤلفاته. إن جرح هذه الروايات وتكذيبها دون تفكير يكون تهمة موجهة إلى كثير من عظماء الدنيا المعروفين بالشرف والأمانة. ولكن ماذا يقال في رجل وُلد مسلماً يصدق هذه الروايات، ثم ينكر بلا تردد وتأمل ما يُروى عن نبيه؟

(٧٠) والدليل الذي يُورد على جسمانية المعراج هو ارتداد بعض الناس في ذلك الزمان غير مصدقين روايته، وكأنهم ما كانوا يرتدون لو بُين لهم روحانيته. فكيف يكون ارتداد بعض الجاهلين بالروحانيات، دليلاً على تضمن الخبر جسمانية المعراج؟ وأنا أعتقد أن هذه الكيفية إنما تحفز علماءنا الدينيين لاجتناب الروايات الموجبة للارتداد. وهذه عقيدة عائشة وحذيفة من أجلاء الأصحاب رضي الله عنهما، فما مزيتنا؟!

(٧١) يروى أنه أذن أخيراً بكتابة أحاديثه، ولكن الرواية الأقوى أن هذا الإذن كان مؤقتاً لزائر فارسي.

(٧٢) نظراً لما ورد في كتب السير أن النبي لم يختر لباساً معيناً. وكان يلبس الأثواب التي تُهدي إليه مما كان مستعملاً في عصره في بلاد مختلفة.

(٧٣) ينبغي ألا يفهم من تعبيري هذا أني أريد فتح طريق لإنكار الحشر. فالشك في أن الله يبعثنا في صورتنا الحالية- بعد الإيمان بأنه خلقنا هكذا- ما هو إلا حمق.

(٧٤) انتشر في بلاد الغرب في السنين الأخيرة كتب بعنوان العلوم الخفية، باحثة في تيوصوفي (معرفة الله)، الذي تحدثنا عنه في الباب الأول، يتوهم أصحابها أن للإنسان أربعة أجسام: فالأول جسمنا المادي المرئي، والثاني جسم نجومى غير مادي (Corps astral)، والثالث جسم روحي (C. mental)، والرابع جسم عِلّي (C. Causal)، وهو الجسم الذي يرجع به الروح إلى الوجود المطلق. وأن الرؤيا الصادقة، والحس قبل الوقوع، واكتشاف المنومين بالمغناطيسية الحيوانية بعض أمور غيبية- ينشأ عن انفصال الروح عن البدن الجسماني، وقطعه المراحل بالجسم النجومي اللطيف.

إن مثل هذه العلوم والروايات لا تزال بعيدة جداً عن إفادة اليقين. ولكنها تشير إلى أن عقيدة وجود حالات معنوية في الإنسان غير ما نشاهد من جسمه الكثيف- يقول بها كثير من المفكرين. والتيوصوفي ومن فروعه التصورات والظنون ليس أمراً جديداً، وأمثاله متداولة في الشرق، في الهند والصين، وحتى في مصر واليونان منذ عهد بعيد. وأما في الغرب فيجد أتباعاً جدد ويتطور. إن هذه الأفكار والمعتقدات المتداولة بين الناس، المستحسنة لدي كثير منهم، لابد على قول سپنسر أن تكون فيها مسحة من الحقيقة مهما قلت.

(٧٥) لا يمكن إنكار تأثير الجسمانية البشرية والبيئة والأطعمة في روحانية الإنسان ومعنويته. فمن البديهي مشاهدة الضعف والخلل في عزم امرئ مريض وملكاته العقلية. بيد أن الأصل في الهوية البشرية هو الروح. ويمكن تصوير علاقة الجسم بالروح- على قدر الإمكان- بالمثال الآتي:

نفرض سفينة، فسفرها يشبه بوظيفة الإنسان الحيوية، وربانها بالروح، وجسمها بالبدن، ومحركها بالقلب، وملاحوها ببعض الخواص الروحية، ووقودها بالطعام، والبحر وسواحلها بالبيئة، والأحوال الجوية بالقدر. فإذا كان الجسم بالياً، والمحرك مختلاً، والوقود ضعيفاً، والأحوال الجوية غير ملائمة، فلن يتيسر إحسان القيام بالوظيفة. ومع ذلك لا يكون أحد مسئولاً أمام صاحب السفينة عن نتيجة السفر سوى الربان. يجوز أن يكون النقص في الاستعداد والمصادفات السيئة عذراً في هذا، بيد أن المسئول عن سوء استعمال سفينة سليمة هو الربان.

(٧٦) قرأت مسودة هذا البحث من كتابي على رجل مشهور بالتبحر في العلوم الدينية والعقلية، فابتسم من إفاداتي أني معتقد أبدية الروح، وقال: «إن رأيك هذا غير صحيح، لأن الروح- ودعك من أبديتها- لا يمكن حتى ادعاء وجودها. وليست بالقرآن آية صريحة عن الروح. وإذا تحدثت عنها أمام الماديين، فليس الأمر مقصوراً على أن لا سبيل للاتفاق فحسب، بل لا سبيل لمداولة الآراء». ويلوح أن هذا الفاضل يتقدم في الشجاعة المدنية وحسن النية الباحثة عن الوفاق، حتى يأمل في إمكان التوفيق بين الإسلام وبين كافة آراء الفلسفة المتناقضة. وأما أنا فمع

اعتقادي بعدم تعارض العقائد الدينية مع الحقائق العلمية، لا يخطر ببالي التقريب بين الفكر الديني وبين فلسفة الماديين.

إذا حققت المسألة من الوجهة الدينية، فيثبت وجود الروح بآيات عديدة قرآنية، ونظراً إلى الصراحة الفرقانية بأنها من أمر الله، يجب الاعتراف بأبديتها.

وبديهي أن ملاحظة العالم التركي المبينة آنفاً قد نشأت من افتتانه بالغرب. ولكن عظماء حكماء الغرب- ما عدا بعضهم- المشهورين بحرية الرأي، والمجمع على فضلهم وعبقريتهم، مقرون بوجود الروح وأبديتها. فيقول فكتور هوجو مثلا:

Jed is que le fombeau qui sue les morts se ferme
Quvre le firmament,

Et que ce qu'ici bas nous prenons pour les termes Est
le commencement.

أقول إن هذا الرمس الذي يواريهم يفتح لهم باب السماء، وما نظنه في هذه الدنيا نهاية، إنما هو بداية.

قال كميل فلاماريون: «الأشباح لباس الأرواح، تمضي وتتغير، وتبلى وتندثر، والروح باقية». وقال جوته: «إني معتقد واثق بأن أرواحنا جوهر لا يفنى، مؤثر منذ الأزل إلى الأبد. فالروح مع أنها تتراءى آفلة لأمثالنا الأرضيين، فإنها تشبه الشمس التي تنشر الضوء دائماً». ولعل عين هذا

obeikandl.com

العالم التركي لم تقع على هذه الأقوال، فلو وقعت لكان هذا الشخص الذي يهمل جميع الأدلة العقلية والنقلية السابقة قد طأطأ رأسه، وبات من غلاة الروحيين.

وصل فلاماريون بمجهوداته التي جاوزت نصف قرن إلى النتائج الآتية:

١- الروح موجودة في هوية حقيقية منفصلة عن الجسم.

٢- ولها خواص لم يكشفها العلم بعد.

٣- وهي تقدر على التأثير من بُعد، دون توسط الحواس، (يجوز امتداد هذا البعد أحياناً إلى كيلومترات ومراحل).

٤- وفي الطبيعة بعض عناصر روحية مؤثرة، ولكن أصلها وحقيقتها مجهول.

٥- والروح تستمر بعد الجسم المادي، وتستطيع القيام ببعض مظاهر عقب الموت.

إذا حُقق الأمر تحقيقاً عقلياً وفلسفياً، فإن احتمال وجود الروح وخلودها أقوى. فمنذ ثلاث أرباع القرن كان الكيمياء العضوي والكيمياء المعدني منفصلاً أحدهما عن الآخر، ويظن تركيب المواد العضوية النباتية من ذرات غير ذرات المواد المعدنية. ثم اتضح بعد الاكتشافات الأخيرة أن المواد العضوية النباتية والحيوانية ليست مغايرة للمواد المعدنية، وأنها مركبة غالباً من الإيدروجين والأكسجين والآزوت والكربون والفوسفور.

إنه وإن كان الماديون المتحفزون لدعوة فعالية المادة في العالم منتفعين بكل كشف جديد حاولوا اتخاذ هذه الكشوف برهاناً لدعواهم، غير أن الكاشفين الأصليين ولا سيما عظماء الكيميائيين أمثال ليبج وپاستور قد اعترفوا متواضعين متدينين بأنه لا يمكن تركيب «أمنكولُس» واحد، بل ولا إيجاد بيضة جرثومة، أو عضلة من أصغر العضل، أو عصب، أو تركيب ورقة بسيطة صالحة للنشوء والنماء، واعتقدوا وجود قوة معنوية للحياة لا نستطيع إدراكها.

ونظراً للعجز عن إيجاد مادة عضوية ذات حياة، مع أن أجسام النبات والحيوان الظاهرية مركبة من مواد عضوية، ويمكن تحليل المادة وتركيبها كيميائياً- يلزم بالضرورة الاعتراف بوجود قوة خفية من أسرار الخلقة في النبات والحيوان ما لم يقدر العلم كشفها على الأقل، أما بناء الماديين قضيتهم على أساس احتمال كشف ذلك السر في المستقبل- فخليقة بالرفض منطقياً. وإذا سميت هذه القوة الحيوية بالروح، فمن أى شيء يلزم جرحها؟

ثم إن تطرق الخلل والضياع للأجزاء المادية، بالرغم من سيرها وانتقالها المستمر- يعد من الحقائق العلمية. [ولو أنه يمكن أن يخطر بالبال خروج المادة من حالة المادية، بناء على النظرية القائلة بحصول المادة من تكاثف القوة. بيد أن القوة التي توجد هذا الجزء المادي تظل في الحقيقة باقية راجعة إلى منبعها الأصلي]. فبأي حق يحكم بفناء الروح التي سُلم بأنها ماهية حيوية؟

ونظراً إلى تجارب علمية حديثة يحافظ الپروتوپلاسم، أي خميرة الحياة- وهي المادة الأولية للحياة وليست روحاً- على حيويته في درجة ٢٥٣° برودة. لقد وجدت جراثيم في مقابر روما ومصر باقية من ألوف السنين، محرومة الهواء والغذاء، واستولدت. وبناء على تخمين سِونت آرنيوس العالم العظيم السويدي المعاصر- أن جرثومة أو بكتريا تفقد من حيويتها في يوم واحد في ١٠ درجات فوق الصفر، ما كانت تفقده في عشرة ملايين من السنين لو كانت في - ٢٢٠°. وبناء على هذه الفرضية يمكن تصور البقاء لحياة بدائية في درجة - ٢٧٣° في المحيط الأثيري. ويمكن أن تتكون فكرة كالتناسل والتكاثر والتطور ثم الفناء في عالم المادة والمحيط النسيمي، والاستقرار والبقاء في العالم الأثيري. وإذ أنه قد ثبت تجريبياً عدم وجود الحياة في درجة الحرارة ١٠٠° وأن الكرات المسكونة كانت نارية في بدايتها، فيستدل عقلاً بأن الحياة هبطت إلى العوالم المادية من الملأ الأعلى- حتى ولو اعترف بفرضية انتقالها من كرة إلى أخرى- إن تصوراتي هذه وفرضياتي ليست مفيدة اليقين. لا جرم أني أقر بوجود الروح وخلودها باعتبارها من أمر الله، بيد أني أومن بأن حقيقتها فوق إدراكنا. ومع ذلك يمكن أن تعد هذه التمهيدات براهين عقلية على خلود الروح، أقوى من أدلة المنكرين في عكس هذه الدعوى.

(٧٧) ١٤٨: لإيضاح رأيي هذا أعرض على أنظار القراء الكرام المثال الآتي: وضع الهندسة الحكيم اليوناني أقليدس، واكتشف «نيوتن» قانون الجاذبية. ورأى العلماء في الزمن الأخير أنه لا هندسة أقليدس التي ظلت

خمسة وعشرين قرناً حقيقة محضة، ولا قانون الجاذبية لنيوتن كاف للإحاطة بالأحداث الطبيعية؛ فقاموا ببعض تعديل وتوسيع في هذا الأمر. ومع ذلك لا يورث عملهم هذا ذرة من الخلل في مجد أقليدس ونيوتن. فإنه لا يتصور امرؤ متمدين يستجهلهما. بل حتى ينزلهما إلى منزلة من صححهما، في حين أن القيام لمنع التقدم بحظر المناقشة في مؤلفات أولئك العلماء بدعوى أنها ليست موضوع مناقشة وجدال- مضر، على أنها دعوى بلهاء. ومثل هذا كذلك محاولة الاستخفاف بعلماء المسلمين وفلاسفتهم السابقين- فهو بلهٌ، بل دناءة بعينها. كما أن تقبلنا آراءهم ونحن مغمضو العينين ليست بالطريق المستقيم. فأقوال الحكماء يجوز تعديلها بما يتفق ومستلزمات التطورات العصرية- على أن تبقى الأسس الدينية والأحكام القرآنية في مقامها الاستثنائي الأعلى.

(٧٨) ومع ذلك ليست بأيدينا حجة نستند إليها في إنكار المعاني الظاهرة لهذه القصص واستحالتها. فإن علم البشر لم يبلغ بعد حقائق الأشياء بلوغاً تاماً. ولا يظنن أحد من كلامي هذا أني من الريبيين. فإني كما بينت في الفصول السابقة، أريد بناء آرائي على العلم- مع قلة بضاعتي- لا على الفلسفة. وعلم اليوم يدلنا على أن تأثيرات اللون والشكل والصوت وغيرها نتيجة لذبذبات وموجات، فيفهمنا أن ثمة فروقاً كبيرة بين الأمور المحسوسة وبين حقائق الأشياء. فلو اخترعت آلة- كمنظار مثلاً- ممكنة من مشاهدة أشعة رونتجن، وهي محصول ذبذبات أسرع من ذبذبات الموجات التي نحس بها اللون- وليس هذا بمستبعد

قياساً على ما نشاهد من التطورات العلمية- فهل يشك في أن الموجودات ستتجلى لأحفادنا في منظر مخالف لما نشاهده الآن؟ ألسنا نرى اليوم أموراً واهية كانت منذ بضع قرون، بل بضع سنين تظن حقائق، أو أموراً كانت في ذلك الوقت مستحيلة، فصارت اليوم واقعية؟

ويجوز اعتبار هذه القضية على عكسها كذلك، أي أن أمراً كان في ذلك الوقت واقعياً، نظنه اليوم محالاً، لعدم إدراكنا له، لأن للأزمنة القديمة علوماً وفنوناً كثيرة؛ فبناء الهرم الذي لا يزال من العجائب السبع، متوقف على قدرة علمية وفنية، وقد أنشئ منذ نيف وستة آلاف سنة! وخاصة العلوم الغريبة فقد كانت جد راقية. وكل ما في الأمر أن القدماء حصروا كثيرا من العلوم في الخواص، فأخفوها في معابد مصر تحت الأرض، وفي معابد الهند والصين؛ فضاعت أمور كثيرة لم تعمّ بعد في تقلبات الدهر، ونسيت ولم تنتقل إلى عصرنا. فقد عُلم من البحوث التي تمت في الهرم الكبير وقوف المصريين القدماء على كثير من أسرار علم الفلك وطول نصف قطر الأرض، وبعد بعض الأجرام السماوية. على حين لم يشتمل فلك بطلميوس الذي ظهر بعده بخمسة وعشرين قرناً على هذه المعلومات. فبأي حق يدعي مفكر منصف بأن ما نعلمه اليوم حقيقة، وأية رواية غير موافقة لمعارفنا اليوم يستطيع إنكارها إنكاراً باتاً؟ قال فلاماريون في كتابه «القوى الطبيعية المجهولة»: ليس لأحد حق في إنكار شيء (Nul n'a droit de rien nier) وقد أصدر هذا العلامة هذا

الحكم طبقاً لما يريده شبابنا المثقفون، المنحرفون إلى وادي الإنكار، أي بعد تجربة واستقصاء مدة خمسين عاماً!

لقد أظهرت العلوم الخفية (Sciences Occultes) التي تتطور على الزمن الأخير بعد أن ظلت مدة من الزمن منسية- عجائب كثيرة محيطة بنا! وما أظن أن هناك فرقاً كبيراً بين مناجاة الأرواح (Spiritisme) والتلقين والوسوسة (Suggestion) والمغناطيسية الحيوانية، والتأثير والتأثر من بعد (Tèlépathie) وبين الوقائع التي بينتها التوراة.

(٧٩) لا يتصور امرؤ له مُسْكَة من العلم والمعرفة انفصال طبقات السموات بعضها من بعض، بسقوف مصنوعة من الزبرجد والزمرد وغيرهما من المواد. لا جرم أن التفسيرات المبنية على جهل كهذا، ليست لها علاقة بالقرآن والدين. لا تنفصل الطبقات السماوية بعضها من بعض إلا بخواصها وأوصافها انفصالاً تدريجياً، فالسماء الدنيا يقتضي أن تكون إحداها- نظراً لتخصيصها- وليست هيئتها العامة. فلو فرض أن هذه السماء هي المحيط النسيمي، وسلم بالنظرية المذكورة آنفاً في أمر الطبقات، لأمكن تقسيم المحيط النسيمي الذي يزيد على نيف وستمائة كيلومتر من الارتفاع والسمك على الترتيب الآتي:

الطبقة الأولى: وهي منطقة التحولات الجوية، يبلغ ارتفاعها نحو خمسة كيلو مترات أو ستة. وفيها تحدث العواصف والزوابع، والرعد والثلوج والأمطار.

والطبقة الثانية: عشرة كيلو مترات أو اثنا عشر. وهي محل حدوث التيارات الهوائية المعاكسة، ولكنها راكدة بالقياس إلى الطبقة الأولى، وأقسامها العليا غير صالحة لحياة الحيوان- عدا الأحياء أمثال البكتريا- لخلوها من الأكسجين، بالرغم من وجود غمام بها يدعى سيروس.

والطبقة الثالثة: وتمتد من خمسين إلى ستين كيلو متراً، يكثر فيها غاز الآزوت، وفيها يظل رماد البراكين معلقاً.

والطبقة الرابعة: ترتفع إلى مئة وخمسين كيلومتراً، وفيها تشتعل الشهب باحتكاك غاز الإيدروجين، فإذا صارت حذاء الكيلو الستين خمدت، لغلبة غاز الآزوت، لأنه مانع من الاحتراق.

والطبقة الخامسة: ليس فيها غير غاز الإيدروجين والهليوم.

والطبقة السادسة: وهي على ارتفاع أربع مئة كيلومتر أو خمس مئة، تتعلق فيها حبيبات تسمى غبار العوالم أو مدفوعات الشموس. وفي غبار العوالم المتكاثف يحدث الفجر الشمالي، وينير الليالي القطبية المديدة كأنها مصابيح، ويزينها ويجعل المنطقة القطبية صالحة للحياة. ولهذه الحبيبات المنيرة خاصة الدفع والطرد لبعض الموجودات والأحياء الخفيفة بواسطة ما تحمله من الكهربا السالبة.

والطبقة السابعة: مكونة من الغاز المسمى «جيو كورونا».

obeikandi.com

ذلكم هو أنموذج الطبقات السبع التي يذكرها المنكرون مستخفين! ويمكن العثور على هذه الحقائق في كثير من الكتب العلمية. بيد أن أصحابنا المنكرين لا يكلفون أنفسهم مشقة البحث والتنقيب، فهم إنما يستلهم بعضهم بعضاً على حسب هواه! ولا أرى حاجة إلى البحث في طبقات الأرض. ولعل كل امرئ له إلمام قليل أو كثير بأحوال الدنيا قد سمع عنها. وإذا فرضت السماء الدنيا بالكرة النسيمية فيسلِّم بطبقاتها وتزينها بمصابيح، وإمكان طرد هذه المصابيح لبعض أنواع الموجودات الدنيئة الخبيثة.

لقد زودتنا آراء المحقق الفاضل الأستاذ نعيم بك في مقدمته لترجمة البخاري بمعلومات عن السموات على الإطلاق. ولكن لا توجيهات الفقير ولا آراء نعيم بك تتضمن معنى كون الطبقات السماوية كما ذكرت حتماً. ولعلها جواب مقنع يشير إلى صور ممكنة- على استهزاء المنكرين وإنكارهم.

(٨٠) إن عدم استقرار الأجرام السماوية في الأفلاك، بل سبحها وجريان الشمس لمستقر لها، وحدوث المادة وفناؤها الذي كان العلم حتى بضعة أعوام ماضية يظن عدم فنائها، قد ذكر كله في القرآن. بيد أن المنكرين كانوا يسندون البهتان إلى كتابنا، لعدم توافقه والمذهب العلمي القديم. وتحققت تلك الأمور كلها علمياً. فالتسليم بمسالة الطلاق، ومنع المسكرات، وكشف التريشين في لحم الخنزير، أليس كله دليلا على اتجاه

المتمدينين الذين يعبدوهم المثقفون منا، وميلهم إلى الأحكام الإسلامية رويداً رويداً؟!

(٨١) يقول علماء المسلمين إن القرآن ليس كتاب علم، وإن آيات التذكير إنما نزلت وسائل وأدلة على التوحيد متفقة مع علم المخاطبين، ومع ما يحدث بينهم في ذلك العهد، فلا محل إذن للمناقشة في هذا الباب، ويقطعون النزاع بهذا من جذوره. وتوجيهاتي المستندة إلى الممكنات والمحتملات التي ذكرتها آنفاً مبنية على قصد الدفاع لمغالطات المنكرين وادعائهم- صيانة للشبان الأغرار.

إني أريد أن أقول مستنتجاً من هذه الآراء المقتبسة من المؤلفات الغربية: إنه كلما ترقى العلم وتشعب، اتسع أفق الممكنات في نظر الإمعان. ولا شيء يمكن رده بسهولة. والفرق بين المدنيين الفضوليين الذين يريدون رد كل شيء بلا تفكير، والقرويين الأغفال المصدقين بسهولة لكل ما سمعوه، إنما هو مرض هؤلاء بالجهل البسيط، وأولئك بالجهل المركب.

(٨٢) يتهم أعداء الإسلام محمداً صلى الله عليه وسلم بالشهوانية، لتعدد زوجاته الطاهرات. وقد أمضى خمساً وعشرين سنة من عمره الخمسين، مع ثيب تكبره بخمسة عشر عاماً، وهي السيدة خديجة الكبرى. ولما توفيت عقد زواجه على عائشة بنت أبي بكر الصديق، إلا أنه لم يبن بها لصغر سنها، وتزوج سودة وكانت ثيباً. وزوجاته الأخريات كلهن

متروكات عظماء العرب، الذين ودعوا الحياة في هجرة الحبشة، وفي الغزوات في سبيل الدين. وفيهن بنت عمر وبنت أبي سفيان.

ذكر في بعض مؤلفات الغرب أنه أرغم زيد بن حارثة على تطليق زوجه زينب، ثم تزوجها. وزينب هذه ابنة عمة محمد، وكانت ممتنعة من الزواج من زيد مولى النبي، مدعية عدم كفاءته لها، فتوسط النبي وتم الزواج، تنفيذاً لما وضعه من المساواة عملياً. تم الزواج ولكن لم يتم الامتزاج بين الزوجين، برغم توسط الرسول، لتكبر السيدة زينب وغرورها، فوقع الطلاق بينهما، فتزوجها الرسول، تعويضاً عما أصابها من غبن في زواجها من زيد. ووقوع الزواج أولاً بوساطة النبي، ودوام زيد على صداقته للنبي، حتى بعد تطليقه زينب وزواجها من النبي- يبعد وقوع الجبر في الطلاق.

كان لمحمد أعداء كثيرون في أثناء حياته كشأن كل مجدد. فبينما يجادله الأعراب والوثنيون جهراً وصراحة، يسعى المنافقون واليهود من طرق خفية لإيذائه والإضرار به، فيفترون عليه الكذب، لإسقاطه بين معاصرين ومن يأتون بعدهم؛ فلذا ينبغي إهمال هذه الأراجيف المتقطرة من أقلام أعداء الدين.

وأما زواجه من جويرية بنت رئيس قبيلة بني المصطلق المغلوبة، فقد ترتب عليه أن أعتق المنتصرون ألوفاً من أسرى القبيلة المنهزمة؛ كما أن زواجه من السيدة صفية بنت أحد رؤساء اليهود بعد موقعة خيبر، عدَّل من شدة المنتصرين على اليهود تعديلاً تاماً. فلهذا لا ينبغي البحث في زواج

محمد عن الشهوة، بل عن العوامل الفكرية والأخلاقية، كالرحمة والرقة والسياسة.

(٨٣) ولدت صنواً لأسرة كبيرة كثيرة الأفراد والفروع، بعد إلغاء الرق في روسيا وأمريكا بنحو عامين أو ثلاثة أعوام. ورأيت في طفولتي عبيداً وجواري، ثم تنقلت فيما بعد في بلاد كثيرة من المملكة العثمانية، فرأيت بعينى ما يجرى فيها من أصول الاسترقاق وقواعده؛ فلذا أزعم بأن فيّ قدرة على تزويد القراء بأنباء نافعة عن كيفية فهم الأسر والاسترقاق في الدولة العثمانية في العهد الأخير.

لا يولد أحد عبداً في البلاد التي تسري فيها قوانين الدولة العثمانية، ولا يسترق أتباع الدولة بالبيع والشراء. وكان العبيد والجواري يأتون إلينا من الروس أولاً، وخاصة من القوقاس؛ ومن إفريقية ثانياً. أما ظهور خطف العبيد في إفريقية أو توسع هذا الخطف على الأقل، بعد كشف أمريكا، فمن المؤكد أن سببه الأمم النصرانية. فكانت البلاد الأوروبية منبع أمتعة أسواق الأسرى التي صارت موضوعاً لكثير من الأخيلة الشعرية في أوربا، وموردها.

ولما قدم إلى بلاد الدولة العثمانية عدد كبير من مهاجري الچركس القوقاسيين بعد حرب القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٥م)، وشرع أمراؤهم وذوو الثراء منهم في استخدام عبيدهم وجواريهم الصغار بالبيع سراً على حسب عاداتهم المألوفة في القوقاس، وانضم إليهم منبع داخلي كذلك، إلا أن هذا المنبع كان محدوداً ولم يدم كثيراً.

كان نظام الاسترقاق المتنقل من الآباء إلى الأبناء، سائداً في بلاد العرب بين قبائل الرُّحل، التي لا تراعى فيها قوانين الدولة كثيراً. ولكن كان لهؤلاء العبيد مقام عظيم بين القبائل، فلهم دواب وخيول ومواش كافية لسد حاجاتهم. ووظيفتهم القيام ببعض غارات خاصة، ولا يكلفون خدمات دنيئة، ولا يباعون للغير حسب التعامل. ومن أولئك الأرقاء عبيد الحسينية، الذين كانوا عند عشيرة الحسينية بسورية، فقد كانت لهم شهرة واسعة بين القبائل.

وطبقة العبيد التي تعيش بين قبائل العرب بتهامة اليمن، تحيا حياة مرفهة سعيدة، ولا سيما الزنجيين المدعوين عنبر ومرجان، اللذين كانا عند شراعي باشا من أمراء الحديدة، وحرازي من كبار تجارها؛ فإني قد شاهدت بنفسي أنهما كانا أرفع مكانة من أفراد أسرة شراعي باشا وحرازي، بل من أبنائهما كذلك. ولم يكن استخدام الأسير من عادة الزيديين المقيمين بجبال اليمن.

وكان استخدام الرقيق نادراً أو معدوماً في الروميلي، من بلاد الدولة العثمانية. وأما في إستانبول، فقد كان استخدام عبد أكثر من سبعة أعوام عيباً في الأسر الكبيرة. وإذا أُعتق العبد لم يطرد من البيت، بل ثقف بعض التثقيف، ثم وظف في وظيفة مناسبة لمعلوماته، وزوج، وقدم له ما يلزم لهذا الزواج من جهاز ونفقات. وليس هذا حسب، بل يظل منزل سيده القديم مفتوحاً له، إذا عجز عن تكوين بيت يأوى إليه سعيداً. ولا تزال عمة لنا چركسية في الثمانين من عمرها، قد أرملت مرتين، تشاركنا في

حياتنا وأرزاقنا المقدرة حتى اليوم. وهناك زنجي قد بلغ الثمانين من عمره يعيش بمنزل أحد أقاربنا، كأنه صاحب آخر لهذا البيت، وقد امتزج السيد صاحب المنزل وهو من السن نفسها والعبد الزنجي امتزاجاً يتمنى كلاهما ألا يرى موت صاحبه. ولعل دعاءهما مستجاب، لأنهما والحمد لله لا يزالان ممتعين بالحياة.

وإذ كان المرحوم عمي صهراً لمشير التشريفات، كان بعض السيدات العظيمات لقصر آل عثمان يحضرن إلى منزلنا للاستجمام، بحسب عادة ذلك العهد. فكم كان سرورهن ورضاهن وارتباطهن بحياة القصر، ومحبتهن للخصيان، ولاسيما صداقتهن لمولاهن! ... وأما ما يدور حول بؤسهن من القيل والقال، فما هو إلا بهتان ومحض خيال. كان تزويج نساء القصر من الرجال ذوي الثراء والمناصب العالية عادة موروثة منذ القدم؛ فقد رأيت في صباي أسراً كثيرة من هذا النوع، فليس ما ذكرته آنفاً مستنداً إذن إلى مثال واحد لا غير.

ذلك هو الرق في الإسلام، فهل يمكن مقارنته بما جرى للعبيد في روما القديمة، وفي أمريكا إلى زمن قريب، وفي أوربا إلى مئة وخمسين عاماً، وفي روسيا حتى سبعين سنة خلون- من العسف والظلم الذي كان يطبق على أولئك المساكين، والعقوبات والمشاق؟ [كان فض بكارة الجارية التي يتزوجها الرقيق- حقاً لصاحب الأملاك قانوناً وعرفاً]. فلم تكن هذه السهولة والرحمة التي عندنا إلا من التعاليم الدينية.

(٨٤) وفي القرآن أمثلة وقصص دالة على ما سهل الله لعباده. ومنها «وخذ بيدك ضغثاً» المتضمنة لتوفية أيوب عليه السلام بعهد من عهوده بصورة لينة. وقد أريد الالتجاء إلى الحيل الشرعية، استدلالاً بتلك الآية الكريمة، ولكن كل من يتلو الوصية في القرآن، يدهش مما حدث من حق وحكمة، بينما كل عاقل قادر على التمييز يعجب ويحتار عندما يسمع التأويل المذكور.

(٨٥) نظراً للقانون الروماني المستعمل في الغرب والشرق الأدنى في ذلك العهد، كان للدائن حق الاستيلاء على المدين، واستخدامه رقيقاً إذا كانت أملاكه غير موفية بدينه الذي كبر بالربا الفاحش، حتى صار أضعافاً مضاعفة.

(٨٦) كنت أدرجت مسألة الأرباح هذه في كتابي، مثالاً للمعاملات العجيبة المستعملة للحيل الشرعية. ولكن القائلين بحرمة الربا بجميع صوره نقدوا ملاحظاتي الأخيرة، فقالوا بعدم جواز المعاملة بالربا بأية صورة من صوره، ولو بحيلة شرعية. فاستوضحت الأمر رجلاً مسلَّماً له من الجميع بالعلم والفضل واستفتيته، فتفضل وزودني كتابة بتفصيل الآراء والأقوال المختلفة لمجتهدي المسلمين في شأن الربا. وألخص ما استنبطته من تلك البيانات فيما يلي:

أولاً: ربا النسيئة، وهو ربا الجاهلية الذي كانت ينتهي برفع الدين إلى أضعاف مضاعفة بطريقة الربح المركب، وغبن المدين، والقضاء عليه غالباً. وهذا الربا منهي عنه ومحرم بتاتاً.

وثانياً: يستنبط من الآية الكريمة «وحرم الربا» حرمة الربا مطلقا بكل أنواعه، إلا أن هذه الآية قُيدت بالآية «لا تأكلوا الربا أضعاف مضاعفة». وإذ أن القاعدة الفقهية تقول: «المقيد يرجح على المطلق، فيحمل المطلق على المقيد»، فيجوز الحكم بأن المنع ينصب على الربا المؤدي إلى تضعيف الدين، وغبن المدين. غير أن العلماء اشتبهوا في هذا القيد، أهو احترازي أم وقوعي؟ فقال عمر الفاروق المعروف بصلابته: «توفى الرسول بدون تفسير الربا، فلذا يلزم ترك الربا والريبة، وتجنب كل معاملة مشكوكة يلاحظ فيها الربا». اتبع علماء أهل السنة هذا الرأي حتى اليوم. ومع ذلك وقع خلاف بين العلماء- فيما عدا ربا النسيئة- في الربا البسيط، كربا الفضل الذي لا يؤدي إلى غبن المدين وإضراره فقد أجاز بعض العلماء الربا الخفيف، الذي يكفل ربحاً للدائن مع بعض أنواع البيوع ذات مواضعات ومقاولات، كبيع العينة وبيع الآجال. ولكني أعتقد أن هذا أيضاً ليس سوى حيلة شرعية، كما ذهب إليه الفقهاء المخالفون على الرأي المذكور.

للتخلص من الربا يلزم ارتفاع علة التحريم. ولما كانت العلة مناط الحكم، فإن ارتفاعها يسقط الحكم. وبما أن العلة منصوص عليها في القرآن، فإن العلماء اختلفوا في هذا الباب كذلك.

فنظراً إلى اجتهاد الفاضل المشار إليه يجوز الإذن بربا غير النسيئة، وعلى شرط عدم غبن المدين، بناءً على قاعدة «الضرورات تبيح المحظورات»، و «الضرورات تقدر بمقاديرها». ثم إن الحديث «إنما الربا

في النسيئة» و«لاربا إلا في النسيئة» يدل على أن الربا المحرم هو ربا النسيئة.

ولا ربا في المعاملة مع دار الحرب، أي البلاد التي لا تسري فيها الأحكام الإسلامية؛ فالربح المأخوذ منها ليس رباً ممنوعاً.

فنظراً إلى هذا يجوز معاملة الربا في أمور ضرورية كتنمية مال اليتيم، وإقراض رجل عاجز عن استثمار نقوده بطرق أخرى، على شرط أن يفيد منها إفادة عادلة غير مضرة بالمدين، وصون تداول الثروة القومية وغيرها من الضروريات.

إن مدنية اليوم تكاد تكون مربوطة بمعاملة المصارف؛ فدور الصناعات الكبرى والتجارات الدولية لا تتم بدون مصارف وفوائد. وشراء أمة أسلحتها من خصومها محرومة من استخدام ثروتها العظيمة يكون مخالفة للأمر الجليل: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل». وبناءً على هذا يكون وضع قانون ينظم الضرورات والاحتياجات ومصالح الناس- موافقاً للفقه الإسلامي. وأحكام المعاملة تدور على المصلحة والمفسدة.

أظن أن هذه الخلاصة التي راجعها الفاضل المحترم، ووافق عليها، تُلزم المنصفين المعتدلين، وترك العلل والحكم في الأحكام، واللعب بالألفاظ ضار بالجامعة الإسلامية، وقد ضرها فعلاً.

(٨٧) بين نيتشه آراءه في كتبه المختلفة بجمل وحكم مكتوبة بلغة نارية. وليس الموجز المذكور هنا من استنباطي من تلك المؤلفات رأساً، بل هو مقتبس من ملخصات دائرة معارف «ماير». وأضيف هنا فأقول: إن نيتشه لم يكن في حياته إنساناً غير عادي حسب، بل إنه جُنّ في الخامسة والأربعين من عمره!

(٨٨) كانت قبيلة بني قُريظة تقييم بجوار المدينة، وعاونت الأعداء في حرب الأحزاب سراً وعلانية، مخالفة لما بينها وبين المسلمين من معاهدة. وهاك أمر التوراة في هذا الباب: «وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك - تثنية، الأصحاح ٢٠ الآية ١٣ - ١٤».

(٨٩) لم يذكر هذا الأمر في القرآن ولكن المعروف أن عبدة الأصنام يسندون إلى آلهتهم أموراً دالة على اعتقادهم حب آلهتهم للنساء.

(٩٠) انظر أواخر بحث «واليوم الآخر» من الباب الأول.

(٩١) انظر الأجوبة التي رَدَدْت بها على الماديين عندنا في مبحث «آمنت بالله» وأوائل الأجوبة على الاعتراضات في مبحث «وملائكته» والاستطراد المشتمل على معاتبة العلماء.

obeikandi.com

(٩٢) يفسر القاموس الطبيعة بأنها سجية جبل عليها الإنسان. والبحث عن الخالق وفكرة الله من الجبلة البشرية. فالإنسان المتفكر لا يسلم بظهور الكائنات من تلقاء نفسها، بل يبحث عن السبب الأول لوجودها.

(٩٣) التزمت في هذا الكتاب طريقة لإثبات القداسة الدينية بأقوال علماء الغرب، فلذلك لا أستشهد بأقوال أعاظم علماء المسلمين. ثم إن حكماء الإسلام المشهورين ظهروا من بين علماء الدين؛ فليس من المنطق سرد أقوالهم في بحث وجدال مع أعداء الدين.

(٩٤) بما أن الفرصة سانحة، فلا بأس من إيراد ملاحظات حول آراء بعض الفلاسفة الميالين إلى الإنكار في ظهور الأديان. فعندهم أن الإنسان المتطور من الحيوان كان كأجداده خالي الذهن من فكرة الأديان. ولكن كلما تأثر بالأحداث والصدمات الكونية وتألم، توهم وجود روحانية حاكمة فيما وراء هذا الأشياء المرئية (Animisme) أي أن هناك شخوصاً غيبية تعيش كالإنسان مفكرة مثله، ومؤثرة في الأشياء الظاهرة. ولما كان الإنسان ككل حيوان مجبولاً على الحصول على أسباب حاجاته المعيشية، والخوف من المهالك- أحس الحاجة إلى عطف وكرم بعض قوى غيبية، زعم أنها مسيطرة على المكونات والأحداث الطبيعية الفائضة بالحياة والنعيم، أو المسبب للبلايا والممات، كالشمس والقمر والنجوم والأرض والبحر والمطر والصاعقة والعاصفة، وغيرها من القوى الطبيعية، وخشية غضبها والحذر منها؛ فشرع في المصانعة بالعبادة لتلك القوى المزعوم شعورها باللذة والنعيم والغيظ والحنق كما يشعر هو، وطلب

رضاءها عنه بتقديم القرابين والنذور والشموع. هكذا أوجد كل قوم دينهم.

يريد هؤلاء الفلاسفة إثبات دعواهم في نشأة الأديان بتشبيه عبادة الإنسان بالصداقة والتملق اللذين تظهرهما الحيوانات، ولاسيما الكلاب، للحصول من أصحابها على الطعام، أو النجاة من العقاب. بيد أن أصحاب الكلاب محسوسون وليسوا متخيلين كآلهة البشر، فلهذا كان القياس مع الفارق. ثم إنه من أي حيوان، وفي نتيجة أي تطور- جاء تصور الروحانية للإنسان المدعي خلوه من فكرة الدين كسائر الحيوانات التي يفرض تشعبه منها؟ فإن هذا الأمر لا يزال في حاجة إلى الإيضاح، لأننا لا نرى في الحيوان ما ينم عن تصورها فكرة الروحانية أو الديانة.

كذلك هم لا يفرقون بين الأديان المنزلة والوثنية الباطلة؛ فالموسوية والعيسوية والإسلام المعدودات ديانات التوحيد، ظهرت- على قول جُستاف لوبون- من تطور تلك العقائد الواهية تطوراً ما. [يعترف جُستاف لوبون في فصل آخر من كتابه بأن الإسلام أصفى دين]. وموجز الكلام أنهم يدعون بأن الديانة إنما تولدت وتُوُرثت من جهل البشر ووهمه وضلاله. ثم يقولون إن ما يشاهد عند بعض الشعوب التي لم تبلغ الكمال بعد من الإيمان بالمغيبات، والتشاؤم والنذور، والاعتقاد بالأرواح والأجسام اللطيفة وغيرها من الحالات الفكرية- ما هي إلا تراث من ذكريات الوثنية القديمة، ويقيمونها دليلاً على صدق فرضياتهم. [هذا الرأي الأخير غريب، إذ يلزم منه أن يكون أوباش باريس المنكرون كل

شيء اتباعاً لشهواتهم أكثر تكاملاً من پاستور، وفلاماريون، ومارشال فوش- من المؤمنين بالروحانيات].

ينكر أولئك الفلاسفة العلاقة بين الخلقيات والأديان، مستدلين على ذلك بأن المشركين والوثنيين يصورون آلهتهم متصفة بالرذائل، من الظلم والشدة، لا متحلية بالفضائل. فنظراً إلى قول جُستاف لوبون يكون بوذا وعيسى هما أول من لقنا الناس عقيدة اتصال الإله بالرحمة، ووجوب تخلق الناس بالشفقة. بيد أن رأيهما هذا لم يكن أثر إلهام، وإنما نشأ مما اكتسبته الطبيعة من الرقة، بتطور بيئات الناس. ولكن الناس- برغم هذه التلقينات- لا يزالون يتصورون العذاب والقسوة في الربوبية. لأن التعصب الديني والرحمة لا يسيران متوازيين، فكلما زاد أحدهما نقص الآخر. فقد عذب نيرون الحواريين أو قتلهم تعظيماً لجوپيتر، كما أن قضاة محاكم التفتيش المقدسة أحرقوا معتقدي المذاهب الأخرى بالنار في سبيل إلههم. وقد اطمأن هذا الفيلسوف إلى تحول إدراك الأخلاق على حسب الزمان والمكان، حتى استغرب من عد بعض الحكماء- أمثال كنت وكندورسي وبوكلي- المبادئ الأخلاقية مشتركة في كل الأقاليم والأمم وغير متغيرة. وأورد في صدد الاحتجاج قول پاسكال: «إن ما هو حق في هذا الجانب من جبال پرينه باطل في جانبه الآخر».

قياساً على ذلك تتغير الأديان بالنسبة إلى الشعوب، وحتى الأشخاص كذلك. فالفرق عظيم بين إيمان پاسكال وبين نصرانية رجل من بيمونتي لا يرى بأسا من سب مريم جاره. ومجمل القول أن الناس خلقوا آلهتهم

وأديـانهم فـي بيئـاتهم، قياسـاً علـى أنفـسهم، ثـم آمنـوا بهـا وعبـدوها. (الحضارات الأولى لجستاف لوبون).

وواضح أن هذه البيانات غير المستندة إلى حساب وتجربة ما هي إلا فرضية، نقطة استنادها نظريات نشوء الإنسان من الحيوان بالتطور، ونشوء الأديان المنزلة من الطاغوت. وقد بينا في الباب الأول من هذا الكتاب أن نظرية بنشوء الإنسان من القرد بالتطور ليست باطلة حسب، بل سقطت من نظر معظـم العلمـاء في الزمن الأخير. حتـى لـو فرض نـشوء الأديان من الخوف والرجاء والتملق المستقر في جبلة الإنسان، كما في كل حيوان أساطير الأولين، فإن عد الأديان المنزلة مولودة الوثنية المتكاملة نسبياً- ليست ملاحظة سليمة. لأن معنى كلمة (Evolution) المصطلح عليه هـو: تطـور تـدريجي فـي الرقـي، ولا نـرى تـدرجاW فـي ظهـور الأديـان المنزلـة. لقـد ظهـرت كلهـا فـي شـكل انقـلاب عظـيم فجـائي. فقـد قـام إبراهيم- نظراً إلى التاريخ المقدس- بمفرده منادياً بهدم عقيدة الكلدانيين الوثنيـة، ومظـالم ملكهـم نمـرود وجبروتـه، فوضـع ديـن توحيـد حنيـف، منـاقض لمـا تعلـم وورث مـن العقائـد مناقـضة تامـة. أمـا موسـى وهـو راع معقود اللسان خلقة، فقد قام وحده طاعناً على معتقدات الفراعنة الجبابرة وسلطانهم، فأنقذ قومه منهم، وأسس عقيدة وحدة الإله ضد عبادة الأصنام الشائعة في بيئته، [قـال جستاف لوبـون: إن بني إسـرائيل عبدوا بعـد وفـاة موسـى آلهـة غير «يهـوا» منهمكـين فـي منهيـات مخالفـة للأخـلاق، ولكـن مناقـشة هـذه المـسألة ليـست مـن موضـوعي. بيـد أنـه كتـب أن أنبيـاء بنـي

إسرائيل اجتهدوا لنفي ما ظهر من السيئات في الدين، والطعن على الدين لعصيان أهله له لا يتفق مع المنطق]. ولما كانت هذه الروايات متوغلة في القدم، وواردة دائماً في الكتب المقدسة، فقد يجوز للمنكرين الشبهة في الوثوق بها. بيد أن عيسى عليه السلام أيضاً وضع دين التوحيد ومبدأ الشفقة ضد وثنية الرومان، وأخلاق اليهود، وأعمالهم الفاسدة، ونشره للناس. قال جستاف لوبون دهشاً: إن الدين الذي وضعه مجذوب كبير سامي Grand halluciné (عيسى عليه السلام) ملفقاً بين العقائد الموسوية وبين تعاليم الشفقة والرحمة التي أبدعها «بوذا» قبله بخمس مئة عام، قد تأسس بدلالة كثير من الأسباب والعلل، واستطاع البقاء عشرين قرناً، وإن فلسفة مذهب العقلية (Rationalisme) التي اكتسبت قوة في زماننا لم تقدر على قهر تلك الأباطيل المتغلغلة في النفوس مذ قرون كثيرة، حتى إن أعظم الحكماء أمثال أوغوستن وغاليلا ونيوتن وپاسكال لم يستطيعوا التخلص من تأثير تلك الخرافات. على حين أن ذلك المجذوب الذي لم يفارق فلسطين، ولم يشتغل بالفلسفة، نظراً إلى مهنته، قد قلب الطاغوت الذي دام دهراً طويلاً رأساً على عقب في بضع سنين. ودعايات المنكرين التي دامت أكثر من قرنين، وزادت قوة على قوتها بالثورات عجزت عن قهرها. أفليس هذا مما يزيد الحيرة والدهش؟!

أما محمد الذي ثبت تاريخه أكثر من تواريخ كل الأنبياء السابقين، فكان قومه وثنيين، وكانت قبيلته صاحبة أجل صنم لأعظم معبد في بلاد العرب، ورابحة ما يترك زوار مكة بتلك المناسبة من ثروات، وقد كان

محمد أمياً لم يمارس العلم والفلسفة قط. وكان بجزيرة العرب النصارى واليهود، ولكنهم ما كانوا متوطنين بمكة. لقد ذكرت في مبحث «ورسله» عدم كفاية رحلة أو رحلتين قام بهما محمد في رفقة عمه، لاقتباس الآراء الفلسفية. فقد استهدف لأنواع المهالك، وداس في سبيل مبدأ مناقض لما تلقى وتعلم في صغره من العقائد والعادات المكروهة السائدة في وطنه وبيئته، ومصالح قبيلته، دون انتظار منافع خاصة من وراء ذلك. إن وضع قانون وتعليمه للناس، وتحريم التشاؤم والتطير وغيرها من المعتقدات الباطلة، كرغبة الفلاسفة الإيجابيين من أمثال جستاف لوبون- لا يمكن أن يُعد من الأحوال العادية، ولا أن ينطبق على التعريف المذكور آنفاً. فتلقين التوحيد لعباد الوثن من عصور كثيرة، وجعل من يعدون وأد البنات شجاعة واستقامة وعبادة يعترفون بحقوق المرأة [تفوض الشريعة الإسلامية للمرأة كثيراً من الحقوق والواجبات فتجيز لها الإفتاء والقضاء في مذهب الإمام أبي حنيفة في الأمور الحقوقية، ولكن لا يجوز حكمها في الأمور الجزائية، لرقة قلبها]، والأمر بالعفة لأرباب الفحش والسفه والغارة والقمار ومدمني الخمر، والرعاية لحقوق الغير- فكلها لم تكن تطوراً تدريجياً، بل كانت طيراناً متعالياً خاطفاً، وانقلاباً عظيماً رحمانياً.

فتلكم أمثلة دالة لا على وجود صلة بين الدين والطاغوت، بل بالعكس براهين تثبت التناقض بينهما. إن إنكار القائلين بمحاولة البشر من تلقاء نفسه تصور روحانية فيما وراء الأشياء، أن يظهر من أنفسهم رجل ممتاز،

وأن يتصور سبباً أول، وخالقاً أزلياً لهذا العالم، وأن يلقن هذه الحقيقة لأبناء نوعه؛ أي إنكارهم للنبوة والأديان- لدعوى فضولية غير منطقية.

يجوز لعبدة الأصنام أن يمثلوا آلهتهم أشداء غدارين، وأن يتمثلوا آثارهم في أخلاقهم وأفعالهم، فتلك أمور هم أدرى بها. ولكن مما لا شك فيه أن معبود الأديان المنزلة قد وصف بالعدل والرحمة، وبإرشاد عباده إلى محاسن الأخلاق. فالأوامر العشرة متضمنة مسائل أخلاقية. والرذائل الخلقية والقسوة والمبادئ الباطلة التي حلت ببني إسرائيل بعد ضياع التوراة الثابت تاريخا- لا يندر أمثاله في كل أمة- لا يجوز إسناده إلى دين التوراة الحقيقي. ومواعظ عيسى وما تحتوي الأناجيل الموجودة بأيدينا لا تفتأ توصي بتهذيب الخلق. وكتاب الإسلام المقدس يأمر بالتوحيد وحسن الخلق مع التبشير والإنذار. يعرف المعروف والمنكر ويبشر بأن رحمة الله واسعة، وأن الله يغفر الذنوب جميعاً، وأن حقوق الغير يجب إحقاقها حتماً، أي أنه يأمر مشدداً باجتناب التعدي على حقوق الناس، وأن العبادة والذكر يلقيان الاطمئنان والرقة في القلوب. وليس من شك في أن حاجة الناس الباحثين بفطرتهم عن معايشهم ومنافعهم في مضرة غيرهم- شديدة لأمثال تلك التعاليم. وإنذار الأشرار بالعذاب، ليس بقسوة ولا وحشية، وإنما هي رحمة. وقد أبان الرسول بأحاديث كثيرة أنه بُعث ليتمم مكارم الأخلاق، وأن حسن الخلق من الإيمان. ويثبت من هذه التفصيلات توافر حسن الخلق في الأديان المنزلة. والمظالم التي ارتكبتها محاكم التفتيش لم تكن من الدين، وإنما هي من عصيان بعض

الرهبان أو حكام ذلك الزمن، الذين فسروا الأحكام الدينية تفسيراً سيئاً، أو أرادوا اتخاذ الدين آلة لتعصبهم ومنافعهم الشخصية، فطبقوها ضد الدين الحق. ومن جملة تلك المظالم، ظلم تيمورلنك وإسماعيل الصفوى. بيد أن السيئات المرتكبة بسوء تفسير القانون أو تطبيقه، لا تقع على القانون، بل على من ارتكبها.

وقضية تغير الأمور الخلقية على حسب الأقاليم والشعوب، بل على حسب الأشخاص، ليست صالحة للدفاع. لأن ما يظهر من التغيرات ليس في الأسس الأخلاقية، وإنما هو في فهمها وتطبيقها، وفي المتفرعات والعادات القومية. فلب الأخلاق الدينية وأساسها ثابت لا يتغير. وهذه الأسس تتلخص في الشريعة الإسلامية بدستور «تعظيم أوامر الله، والشفقة على خلقه». ويمكن أن تشمل هذه الجملة، موافقة للأوامر القرآنية والأحاديث النبوية، على الأسس الآتية:

رعاية حقوق الغير، المرحمة والكرم، الحياء والعفة، والوفاء والجود من السجايا العالية. والأديان والأمم متفقة في تبجيل هذه الخصال. حتى إنه لا يُعير أضعف فرد لقوم من الأقوام بخلوه منها إلا يعد هذا إهانة له، ويقوم بالدفاع عن نفسه. أما ما يقال عن الإسپارطيين القدامى بأنهم كانوا يبيحون اللصوصية، وأن الشعوب المتوحشة يقتلون شيوخهم ويأكلونهم! فإنا لا نعد لا قدماء إسپارطة ولا متوحشي أوستراليا متدينين، حتى نحمل الدين سيئاتهم! ثم إن هذه الانحرافات نشأت من سوء تفسير المبادئ التي ذكرت آنفاً، وليست من إنكارها.

وزعم تبدل الإيمان على حسب الشعوب والأفراد، موضع مناقشة أيضاً. فمن المسلم به أن نظرة رجل مشتغل بالعلم والفلسفة في بيئات متحضرة إلى الدين، وشعوره به، يكون أوسع وأسمى من نظرة الدهماء إليه. ولكن الأسس الاعتقادية واحدة في جميع الأديان (برغم بعض الاختلافات في الفروع)، وهي الإيمان بالله وبعالم الغيب، والوحي، واليوم الآخر، وعبادة الله والشكر له، وتطهير القلب وتصفيته، وخدمة الإنسان لأبناء نوعه، وإحسانه إليهم. وإذا انحرف بعض الجهال عن طريق السداد، وسب رجل من بيمونتي مريم خصمه، فلن يصيب الدين نقص من كل هذا، وإنما الإثم على من أهمل تعليمه وتلقينه.

وليس يندر من يعترض على هذا بقوله: «ما دامت الأديان المنزلة لم تتولد من أساطير الأولين، والحقيقة الدينية واحدة لا تتغير، والبعث والوحي حق، فما السبب لترك البشر عصوراً طويلة في جهالة بلا إلهام؟ ولكن القرآن أنبأنا بأن الرسل قد بعثوا إلى البشر مذ أن ظهر، وأن أحكام الدين المنزل على خاتم الأنبياء لا تختلف عما أنزل على نوح من الوصايا. غير أن القوى الطبيعية وأحداثها ليست بدافعة على التطور والرقي دائماً، فمن الجائز أن تستلزم الانحطاط والفساد. فثمة حكمة إلهية مدبرة لموجات التطور والفساد، والرقي والانحطاط، على صورة يستقر بها ملك الخليقة، وتوفى جميع المخلوقات آجالها المكتوبة، فيتم التطور المطلوب، أثراً لهذا الرقي والانحطاط».

ويمكن أن يتخذ لهذه الحالة مثال من التأثيرات المفيدة والضارة التي تحدثها اضطرابات أجرام مجموعة الشمس في سيرها، وحدوث تطور المجموعة ودوامها بهذه الاضطرابات.

إن البشرية قديمة جداً. لقد وجدت آثار دالة على أن الناس الذين عاشوا قبل التاريخ كانوا متدينين. ولا يلزم مسايرة تموجات الدين للمدنية كذلك. لأنه من الجائز أن تكون الأزمنة التاريخية التي بلغها علمنا عهد انحطاط العقائد. وجائز أن يكون أجداد الأمم التي نعلم تاريخها إلى زمن ما- أصحاب عقائد صحيحة، وضل أحفادهم لطول الدهر، كما ورد في القرآن، ثم يرجعون إلى طريق الحق والهداية، بإرشاد الأنبياء والرسل (انظر التعليق رقم ٦٢).

وأسفاه؛ إن أنصاف المتعلمين عندنا يقبلون بلا تحقيق ولا جدال- الملاحظات الظاهرة البطلان، والأمثلة الخاطئة- ولاسيما إذا كانت تعزى إلى عالم معروف- فتدور في الأفواه، وتفسد أذهان الشباب وتسممها. لقد سمعت ما ذكرت من النظريات الجاحدة من كثير من المتفلسفين الجاهلين مصادرها، قبل أن أقرأها في كتب. من يلقنهم هذه الآراء؟! أما رد ذوي الرأي على هذه الدعايات ودفاعهم عنها، فينحصر إما في عنف المتعصب، وإما في سكوت العاجز الخائف. ومن هذين يتشعب الكفر في البلاد.

ألخص الآن رأيي الشخصي، الموافق للإرشادات الدينية في نشوء الأديان: لما كان البشر مضطرين للحصول على حاجاتهم وملاذهم من

موطن واحد عام، أي من الأرض، فمن الطبيعي حدوث التزاحم والمحاسدة والقتال بين الأفراد والجماعات. وتسبب هذه الحال ميل الناس إلى الظلم والمكر، اللذين ينشأ منهما مختلف السيئات. ولما كانت تلك السيئات المتسعة المتزايدة في نسب هندسية بتأثير دافع طبيعي، وجائز أن تخل بنظام العالم وتبيد النوع، فقد أنزلت أديان وبعث حيناً بعد حين رجال خارقون للعادة، لقنوا بني البشر أن هناك دار عقبى بعد هذه الدنيا التي عجزوا عن تقسيمها، ونعماً خفية لا تحصى بعد الملاذ الدنيوية التي لم يستكفوها، ومحكمة عليا للفصل بين الظالم والمظلوم، وإلهاً قادراً فياضاً مطلقاً، بدل أسيادهم الذين اتبعوهم في الدنيا. وبهذه الصورة تتم الموازنة ويُكْفل نظام العالم. إن تحول الأشياء والأحداث عن سيرها المعتاد- ليس حالة لم تشاهد في هذه الدنيا، فلذا لا يمكن إنكار فرضيتنا هذه علمياً. ونظراً إلى هذه الفرضية تقاتلت الجبلة البشرية مع التعاليم الدينية. وفي خلال تلك المقاتلة تنتصر فطرة الإنسان البهيمية حيناً بعد حين، فتسقط الأحكام الدينية عن الاعتبار، أو يحرفها ذوو المصالح على حسب هواهم. فظهور الطاغوت والأصنام هو مظهر الشق الثاني. وعند ذلك تتدخل الأمور الغيبية لرفع تلك الشرور والبدع والسيئات المتزايدة وإزالتها، أي يتعاقب الرسل. ويجوز أن يقال: هل النبوة منحصرة في الجنس السامي؟ كلا لم تقم الأديان بمثل هذه الدعوى قط، وإنما يرد ذكر الأسماء السامية في كتبنا لكون الأديان السائدة اليوم من أصل سامي. أو ليس «بوذا» و«قونفوسيوس» من المعتقدين في الشرق الأقصى؟ وليس بأيدينا سبب نتمسك به لإثبات ما أسند إلى اسميهما من الخرافات على

تعاليمهما الأصلية. وبالعكس من ذلك هناك أدلة كثيرة تدل على تبجيل العظماء التاريخيين بعد موتهم إلى درجة التقديس، وتبديل وصاياهم ونظرياتهم.

وموجز الكلام: ليس في ظهور الأنبياء في السويد أو في بلاد اليونان أو حتى في أمريكا القديمة، وتلقينهم الدين للناس ما ينافي عقيدتنا مطلقاً: «رسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك» سورة النساء، ولا جرم أنا إذا فكرنا جيداً، اتضح وجود نقطة مشاركة بين الأديان كلها. وهو أمر خليق بالبحث. ولو أن الذين استيقنوا وجداناً بأنهم مبعوثون من عند الله، ولقنوا الناس مبادئهم على هذا الاعتبار، فصدقتهم الناس بصفتهم أنبياء؛ إلا أنه ليس مما ينافي العقائد الإسلامية أن يقوم رجال ذوو فطرة عالية بتنفيذ المراد الإلهي دون قيامهم بدعوة الرسالة. ويجوز مثلاً عد المجددين الذين أنبا الرسول بظهورهم على رأس كل مئة عام من أولئك الأشخاص.

(٩٥) أورد كميل فلاماريون في ص ١٧١ من كتابه «الله في الطبيعة» قياساً منطقياً غريباً لهيكل من فلاسفة الألمان (توفى سنة ١٨٣١)، وهو: «المادة غير الروح، والروح غير المادة، وكلاهما غير، فكلاهما واحد». ما أظن أن مثل هذا القياس الذي يصنع باسم المنطق يستطيع إيصال البشر إلى الحقيقة.

(٩٦) أظن أن ملاحظتي هذه ستكون موضع اعتراضات كثيرة. فلذا أجتهد في إثبات دعواي بأن أقص مختصراً بعض ما حدث لي من

الحوادث في خلال حياتي في الوظيفة: من المعلوم أنه منذ إعادة الجبال اليمانية إلى إدارة الدولة العثمانية للمرة الثانية عام ١٢٨٧ الهجري، صارت المعيشة في هذه القطعة الميمونة معيشة جهنمية، من جراء المخاصمات والمصادمات الكبيرة والصغيرة المتوالية، بلا انقطاع تقريباً. وقد سافرت إلى اليمن قائد الأركان حربية الجيش العثماني، المرسل لقمع الثورة الكبيرة التي شبت سنة ١٣٢٠هـ بقلب مسموم، وبالعداوة والبغض وسوء الظن، نحو الزيديين مشحون، وفكر متأثر محزون من الأساطير المتغالية، التي نقلها بعض الضباط والجنود وبعض الموظفين المدنيين، ممن عادوا منها إلى الوطن، متأثرين معنىً بما لقوا فيها من المشاق، وبمن فقدوا فيها من رفقائهم وأبناء جلدتهم. ولكن ثبت لي في نهاية تحقيقاتي المنصفة في خلال خدمتي التي دامت ثلاث سنوات ونصف سنة ثبوتاً يقينياً، أن تلك الفضائح والمساوئ تولدت من سوء تصرف الولاة والموظفين الظالمين المرتشين، أكثر مما هي من اختلاف المذاهب. ووجدت الحكومة العثمانية المركزية الذاهلة، والمهملة في اختيار الموظفين ومراقبتهم وتفتيشهم أكثر خطأ ومسئولية من الإدارة الإمامية اليمنية، التي توسلت باستغاثة الأهالي المظلومين، لبلوغ تقاليدها المذهبية، وأمانيها القومية. وقد وقفت في نتيجة المباحثات والمناقشات التي حدثت بيني وبين بعض العظماء والعلماء المحليين في اجتماعات خاصة على أن الزيدية الحقيقية ليست بها حالة مغايرة للمبادئ الإسلامية– بالرغم من الشتائم والمفتريات المتقابلة– فما صرت صاحب رأي في أمور الدولة المهمة، بكوني رئيس أركان الحربية العامة بعد

إعلان الدستور، حتى اقترحت الاتفاق مع الإمام في أول فرصة سانحة. ولما كلفت قمع الثورة العامة التي قامت في أواخر سنة ١٣٢٦هـ من جراء عدم تصويب رأيي، بادرت إلى تنفيذ ما أرى في مسألة الاتفاق مع الإمام، بمجرد استرداد الأقسام المنتقلة إلى يد العساكر الإمامية من الولاية. ولكن ظهرت أمام فكرتي هذه مقاومة عنيفة سرية مشوبة بالنفاق، أثارها بعض المنتفعين بالنفاق والشقاق، من معتادي الجرم من زمن قديم، وبتدخل مراكز جمعية الاتحاد والترقي بصنعاء والحديدة تدخلاً شديداً، فكان المخالفون يسعون لاستغفال الباب العالي والمركز العام لجمعية الاتحاد والترقي بسلانيك من جهة، وإخراج بعض الأمراء العسكريين المشهورين باليمن من سلك الطاعة من جهة أخرى، فيطبعون في مطبعة الدولة رسائل في معنى «ليس إصلاح اليمن في الاتفاق والاستمالة، وإنما هو في القضاء على الفقهاء والسادات»، ثم يوزعونها سراً على الضباط الذين أتيت بهم من الوطن الأصلي لإنقاذ أولئك المخالفين من الحصار. وفي خلال ذلك كان ختم الجمعية المركزية للاتحاد والترقي بصنعاء أمانة بيد أحد العلماء السنيين، فتجرأ مفتي ألاي قد اشتهر هناك بالعلم والفضل، واتسع نفوذه في تعزّ، حتى أقام الشوافع عليّ. ولكن ما إن استدعيت بعض السادات وعلماء الزيدية، وأبديت لهم رأيي في هذا الباب، حتى قبلوه بلا تردد، على الرحب والسعة. غير أن مجرى الأمور لم يسمح بوقت كاف لاقتطاف الثمرات الإدارية والسياسية لهذا الاتفاق الذي أبرمته، بما ذكرت من المشكلات. ومما لا شك فيه أنه لولا مشروع هذا الاتفاق، لكان نصيب كل من باليمن باسم الترك إما السيف وإما ربقة الأسر، أيام الحرب

الإيطالية. فليكن الشأن السياسي ما يكون، فقد ترتبت على ذلك الاتفاق فائدة دينية خالدة، وذلك أن الإمام يحيى أصدر في الأسبوع الأول من إمضائه فتوى بأن سب الشيخين كفر، وأن كل من يتجرأ عليه يجب قتله- كان سب الشيخين أمراً معتاداً لدوام الخصام من أربعين سنة.

هكذا استطاع مشروع جندي بسيط حر التفكير محب للخير رفع أكبر سبب من أسباب الاختلاف المذهبي وإزالته، برغم مقاومة علمائنا.

أذكر مثالاً آخر في هذا الشأن. وهو أنه لما سحبت الحلفاء جيوشها من مضيق البحر الأبيض في الحرب الكبرى، عينت لقيادة الجيش الثاني، المقرر إرساله لمحاربة الروس، الذين استولوا على أرضروم، وظهر استعدادهم للاستيلاء على الأناضول، على أن يُعهد إليّ في قيادة الجبهة كلها عندما يتم حشد هذا الجيش، بجوار ديار بكر. فبينما كانت الكتائب الأولى من هذا الجيش الذي يحتاج تجمعه لأكثر من شهرين تقترب من تلك الجهات، قامت ثورة في «درسيم». ولما كنت لاأزال بإستانبول مع القسم الأعظم للجيش، لم يكن لي حق الأمر والقيادة، ومع ذلك طلبت وزارة الحربية رأيي في خصوص قمعها، فنصحت مرتين باختيار جهة الاستمالة، والتجنب لاتخاذ التدابير الشديدة. ولكن قائد الجيش الثالث ألح، فشُرعت في الأعمال التنكيلية بالفرقة الثالثة عشرة، وهي أول ما وصل من فرق الجيش الثاني؛ فاعتصم كل من يقدر على حمل السلاح من أهالي درسيم الشرقية المصابة بالهجوم بالجبال، وشرع يدافع عن نفسه. سارع جيشنا إلى ضبط المدن، وإجلاء النساء والأطفال والضعفاء

منها، ووصلتُ في أثناء ذلك إلى ديار بكر، واجتمعت مع أنور باشا القادم من تفتيش الجيش الثالث. فلما سألني رأيي عن الفرقة الثالثة عشرة المذكورة: هل يجب أن تكون تابعة للجيش الثاني أو للجيش الثالث؟ استصوبت بقاءها تابعة للجيش الثالث، على أساس أن تكمِّل ما شرعت فيه من أمر القمع. فما كاد يحصل وهيب باشا على هذا الإذن مني حتى أخلى «درسيم»، التي حولها بؤرة الأشقياء، وضم الفرقة إلى جيشه وشرع فى الهجوم طامعا فى الانفراد بفخر الفتح، بل انتقال القيادة العامة إليّ بتمام اجتماع الجيش الثاني. بيد أنه لم يمض غير أيام قليلة حتى اضطر إلى الرجعة مهزوماً مقهوراً. وقد أوقعه أهالي درسيم في مشاكل لا تحصى، بهجماتهم المتكررة على جنبات جيشه، وقبلوا موظفين كثيرين من الروس. وفي خلال ذلك كان بعض المنتمين لحزب الائتلاف والحرية مشغولين بالتوسط بين الروس وأهالي درسيم، في أمر الصداقة وتوزيع هدايا الروس على الرؤساء. فكان موقف جبهتنا في أشد الحرج. لقد انكسر جيشنا في الشمال، وشرع يتراجع نحو الغرب، وجيشنا في الجنوب لم يتجمع بعد، وبينهما منطقة درسيم مشتعلة بنار الانتقام من جراء ما اتخذ معها من الشدائد التي لم تهدأ بعد! صرت أمام ضرورة ملحة للقيام بهجوم مضاد بالجيش الثاني ناقص التكوين، لوقف الروس عن تعقب الجيش الثالث. فما كان من الروس إلا أن سحبوا جيشهم من أمام الجيش الثالث المنهزم شر هزيمة، وحولوا هجماتهم على الجيش الثاني. ولما كان الجيش الثاني معتمداً على جبال «كارپر» التي تسكنها عشيرة علوية، والتي يتصور أن تكون مركزاً لخطنا الدفاعي، لزم إجلاء

الأهالي عن أراضيهم مؤقتاً. ولهذه المناسبة طلب رئيسهم وهو رجل في التسعين من عمره يدعى «كوچوك آغا» الاجتماع معي، ليعرض عليّ بعض رغبات خاصة بعشيرته. فاستقبلته باحترام، وحبذت طلباته، وأفهمته في أثناء المحادثة أن قيام أهالي درسيم بهذا العصيان لدولتهم في أثناء محنتها- أمر لا يتفق والحمية الدينية؛ ثم استفهمت منه: هل هو مستعد للتوسط بيني وبينهم، لإرجاعهم إلى الحق، فأجاب بالموافقة. وأرسلت أيضا أحمد بك يوزباشي أركان الحرب لاستكشاف بعض المواقع هناك، مع محمد بك خاتون أوغلي (ابن أخي إسماعيل باشا القورد – ذئب) وهو أميرالاي بالمعاش، ومن أسرة محترمة هناك؛ فانضم الدرسيميون إلينا، بسعي أولئك الثلاثة، وطردوا من كان معهم من الروس والمخالفين والخونة، بل قاموا بهجمات على الروس.

يجوز أن يكون لإعادتي النساء والصبيان والشيوخ الذين أجلوا عن درسيم في بداية الحركة تأثير كبير في اجتذاب القلوب، ولكن دعوتي التي وجهتها إليهم وقت الضرورة كانت باسم الدين، وكان المسارعان إلى الاستجابة بلا عوض مادي شخصين، يدعي أحدهما السيد حسين، والآخر السيد رضا، جامعين رياسة المذهب والقبيلة، ومعهما مصطفى بك بن شاه إسماعيل بك، وقد وقع السيد حسين شهيداً في إحدى هجماته على الروس. ومهما قيل فيهم فإني أجد نفسي مديناً بالترحم عليهم من صميم قلبي. فإن انضمام درسيم إلينا في ذلك الوقت الحرج، أنقذ كلا الجيشين من الهزيمة المحتومة، وأنقذ الأناضول من استيلاء

الروس عليها. وإسراع شجعان درسيم إلى إنقاذ ألوف الأسر الإسلامية من القتل العام، عندما انقض عليهم الأرمن بهجماتهم الوحشية، في أثناء انسحاب الجيش الروسي، عندما ظهرت الشيوعية في روسيا، يمكن أن يذكر ضمن حسنات ذلك الائتلاف. كان سكان درسيم أيضا من غلاة الشيعة، ومن قسمها الجاهل. ولكنا لما تحدثنا معهم عن الجهة الإسلامية الجامعة، اتفقوا معنا. فلو سنحت الظروف وتأسست إدارة سليمة بدرسيم بعد انتهاء الحرب الكبرى، وأرشدهم رؤساؤهم، لأمكن جلبهم إلى طريق الحق، وتحويلهم عنصراً نافعاً للدولة.

(٩٧) إقفال باب الاجتهاد كلمة تدور في الأفواه في المذاهب السنية، وعدم ظهور مجتهد منذ عهد الأئمة الأربعة مؤيد لهذه الرواية. والعجم لا يزالون يلقبون علماءهم الكبار بالمجتهدين. والزيديون يشترطون الاجتهاد في اختيار أئمتهم؛ فقد أنبأني بعض علمائنا الأفاضل ذوي الآراء الصائبة، الذين رجعت إليهم في هذا الشأن، بأن باب الاجتهاد أقفل من تلقاء نفسه، لعدم ظهور من يكتمل فيه شروط الاجتهاد. وإذا ظهر هذا الرجل، فباب الاجتهاد مفتوح أمامه على مصراعيه! ولكن على أي أمر يحمل عدم ظهور مجتهد عند المسلمين في ألف عام؟! وعند الشيعة الاجتهاد والمجتهدون! لقد ورد في صفحة ٣٤٩ من كتاب «تلفيق المذاهب»، الذي ألفه الشيخ محمد رشيد رضا الحسيني من علماء مصر، وترجمه الشيخ أحمد حمدي الأقسكي من أفاضل علمائنا، أن باب الاجتهاد أقفل سياسياً، وبهذا صدق ما ذهبت إليه في هذا الباب.

(٩٨) ١٨٨ ص: سمعت أخيراً أن الإمام قال إنه لم يُقتل بأمر منه، وإنما قتل بخيانة بعض الغلاة. وهذه الرواية مؤيّدة بورع الإمام وأصالته.

(٩٩) ص ١٩٢ كانت القوات التي استخدمتها الدولة العثمانية في محاربة الشيعة الجيش الإنكشاري وفرق اللوَنْد (Levantino) التي يقودها أمراء الأناضول والروميلي. وكانت هيئات قيادة هذه القوات على الأقل– إن لم يكن كل أفرادها– من البكتاشيين.

وهذا دليل على أن البكتاشية لم تكن في ذلك العصر خارجة عن السنية. وإن ظهرت آثار التمرد في جيش السلطان سليم الأول حين حروبه مع الإيرانيين، فإن المحرضين لها كانوا قضاة عسكر الدولة، وندماء السلطان!

Obeikandl.com